عمر بن عبد العزيز

وتجربته الرائدة فى الإصلاح

الطبعة الأولى
(١٤١٨ هـ/١٩٩٨م)

« عمر بن عبد العزيز »

وتجربته الرائدة فى الإصلاح

﴿ من المؤمنين رجال صـــدقوا ما عاهدوا الله
عليه فمنهم من قضـى نحـــبه ، ومنهم من
ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾

(صدق الله العظيم)

خديجة النبراوى

مركز التوثيق والدراسات والتربية الإسلامية
القاهرة
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

(سلسلة نحو وعى إسلامى ؛ ٧)

١٤١٨ هـ / ١٩٩٨م

مركز التوثيق والدراسات والتربية الإسلامية

٢٦ ب - ش الجزيرة الوسطى - الزمالك - القاهرة - ج. م. ع.

بيانات الفهرسة أثناء النشر - مكتبة المركز بالقاهرة :

خديجة النبراوى .

عمر بن عبد العزيز وتجربته الرائدة فى الإصلاح .

القاهرة : مركز التوثيق والدراسات والتربية الإسلامية .

٩٩ ص ؛ سم . - (سلسلة نحو وعى إسلامى) .

تدمك ٦ - ٢٠ - ٥٦٧٩ - ٩٧٧ .

رقم الإيداع : ١٩٩٨/٤٦٢٤ .

المحتـــــويات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عندما هدانى الله للكتابة عن « **عمر بن عبد العزيز** » واطّلعت على ما كُتب عنه وقفت أمام هذا الحشد الهائل مندهشة ومنبهرة وانتابتنى الحيرة : ماذا عساى أن أكتب بعدما أسهب الكُتَّاب والمفكرون فى التحدث عن تلك الشخصية الإسلامية التى جمعت نواحى العظمة واستأثرت بوجدان المسلمين وإعجابهم الذى لم تؤثر فيه مرور السنين والأعوام . وألح علىّ سؤال يفرض نفسه أمام كل ما كتب عن « عمر بن عبد العزيز » : تُرى ما السر الذى كمن فى شخصيته بحيث تجد الأقلام دوما الجديد الذى تسطره عنه كأنه بحر خضم لا تنضب مياهه ولا ينقص قدره ما ينهله منه كل من تتوق نفسه إلى ما يروى ظمأها ويشفى نهمها نحو التعرف على حدود قدرة النفس البشرية على التسامى والعطاء وتغيير المجتمعات مهما بلغت فيها تيارات الفساد والإنحلال ومهما وصلت فيها هوة التخلف والانحطاط ؟؟!

وعندما حاولت الإجابة عن هذا السؤال متحرية الحق وبعيدة عن هوى النفس : وجدت أن الإجابة الحقيقية تكمن فى : أن ما جاء من نواحى العظمة فى شخصية « عمر بن عبد العزيز » ترجع إلى عظمة المنبع الذى استقى منه مبادئه ، وقوة اليقين الذى امتلأ به قلبه وسيطر على جوارحه ، فأصبح نموذجا حياً للمسلم الحق ، كما أراد الله برسالته الخالدة وجعل المؤمنين بها خير أمة أخرجت للناس .

وكيف لا يكونون كذلك ، وهم يؤمنون بمبادئ سامية يستحيل أن تجود قريحة البشرية بمثلها ، فجعلوها منهاجا لحياتهم ، ونبراسا يسدد خطواتهم ، وسندا يقيل عثراتهم . ولذلك ستظل شخصية « عمر بن عبد العزيز » إثراءً للمفكرين المسلمين ، يستخرجون منها كنوزاً ثمينة ، تكون معالم على طريق التقدم والحضارة ، مهما تغيرت الظروف ومهما تقدمت العصور . لأنه استطاع أن يجعل الأمة الإسلامية تعيش عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ، رغم ما تردت فيه من ترف ونعيم وما تبع ذلك من فساد سياسى واقتصادى واجتماعى ،جعل الناس يتيهون فى غمرات الجاهلية، وجعل المؤمنين المخلصين

العاضين على دينهم بالنواجذ ، يقفون حائرين يسألون أنفسهم : كيف السبيل إلى تخطى تلك الصعاب الرهيبة التى تقف بين الأمة الإسلامية وبين تطبيق عقيدتها كشريعة ومنهاج؟!

ومن هنا تتبلور تلك المعجزة الخالدة التى حققها « عمر بن عبد العزيز » عندما تولى خلافة الأمة الإسلامية : حيث برهن بالدليل العملى القاطع ، أن روح الإسلام ستظل دوماً وأبدا قادرة على انتشال الأمة من كل مهاوى الضياع التى وصلت إليها ، إذا صدقت النية فى تطبيق شريعة الله ورسوله ، وحفزت الهمم والعزائم فى سبيل ذلك .

وهذا سر الإعجاز الذى تنطوى عليه شخصية « عمر بن عبد العزيز » إنه إعجاز الدين الحق عندما تؤمن به النفوس القوية ، ويتغلغل به كيانها ، ويعمر اليقين بمبادئه قلوبها النقية المخلصة . وعلى قدر جهدها ضد الفساد ، يكون الأجر والثواب كما أخبرتنا السنة المطهرة.

- عن ابن عباس « رضى الله عنه » عن النبى ﷺ قال : « من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله أجر مائة شهيد » . رواه البيهقى والطبرانى .

صدقت يا سيدى يا رسول الله ، فإن التاريخ يقف انبهاراً للخليفة « عمر بن عبد العزيز » لأنه أحيا سنتك وشريعتك ، بعدما عم الفساد وانتشر الظلم والطغيان ، فكان نورا أضاء فى ظلمات الجاهلية ، وكان أملا أحيا النفوس من مواتها ، وكان منارة رفعت راية الحق خفاقة عالية ، وكان إماما تعبت الملوك من حذو خطواته ، وأثقل كاهلها أنين الشعوب التى تطالب بعدل « عمر » ورفقه برعيته وإصلاحه لأحوال أمته ، رغم كل ما كان يكتنفها من عوامل الهدم التى تنخر فى كيانها . فاللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد الذى هدانا إلى الدين القيم الذى فيه صلاح أحوالنا ، وصل وسلم على آله الاطهار الأبرار ، وصحبه الأخيار ، وكل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

* * *

﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴾ « صدق الله العظيم » (الأعراف ٥٨) .

لمحة إجمالية عن حياة الخليفة الزاهد

قبل التكلم بالتفصيل عما نريد التركيز عليه من حياة الخليفة الزاهد ، لابد من لمحة إجمالية عن حياته ، لنعرف أن ذيوع الصيت بالثناء والذكر الحسن لا يأتى من العدم ، بل هو تتويج لعوامل كثيرة منها : شخصية الإنسان - عوامل وراثته - نشأته - تعليمه - الظروف المحيطة به - جهاد نفسه ضد نزعاتها الدنيوية والشيطانية - درجة يقينه بالعقيدة التى آمن بها ، وتشبثه بتطبيق المبادئ التى جاءت بها ، مهما صادفه من صعوبات وتضحيات .

والحق يقال : إن « عمر بن عبد العزيز » قد بلغ ذروة التفوق البشرى فى كل تلك العوامل السابقة ، وهذا ما جعل أصوله عريقة ثابتة ،وفروعه تكاد تبلغ عنان السماء ، تقف شامخة على مر العصور ويفوح عبق أريجها على البشرية جمعاء ، وتلقى فى سمع التاريخ دروساً فى التقوى والعدل والشورى والمساواة والتنمية ، يندر أن يوجد لها مثيل ، وخاصة أنها جاءت فى ذروة اتساع الدولة الإسلامية ،وفى ظروف تدهور روحى للشعوب تشابه ما يعيشه عالمنا المعاصر ، وبالتالى فهو نموذج حى واقعى يناسب جميع الأجيال .

وسنلقى نظرة سريعة على بعض العوامل التى ساعدت فى إثراء تلك الشخصية العظيمة المثال ، كعبرة لنا فى تربية أولادنا ، واختيار أمهاتهم ، وتنشئتهم على حب العقيدة ودراستها دراسة واعية تتناسب مع روح العصر وتطور العقول ، حتى نكون أجيالا تعرف موقع خطواتها على دروب الحياة ، وتعرف كيف تصوغ حاضرها ومستقبلها ، لا أن يصوغها غيرها ويشكلها حسبما يريد ، فتلك هى الطامة الكبرى والضياع الأكيد لهويتنا وشخصياتنا بل وحياتنا كلها :

- بالنسبة إلى نشأة « عمر بن عبد العزيز » وتعليمه :

إن نشأة « عمر بن عبد العزيز » لا تبدأ من يوم مولده ، ولكن تبدأ من عوامل وراثته عملا بوصية الرسول ﷺ فى أن يتخير المسلم الحق لنطفته المرأة المؤمنة ، لأن العرق دساس، وقد اختار جده الأكبر سيدنا « عمر بن الخطاب » وهو أمير المؤمنين ، ابنة بائعة اللبن ، لتقواها وخشيتها من الله فى السر قبل العلن وهذا معناه أنها صاحبة ضمير حى

وعقيدة راسخة ، فَزَوجها لابنه « عاصم » قائلا له بفراسة المؤمن الذى يرى بنور الله :
«تزوجها يا بني والله ليوشكن أن تأتى بفارس يسود العرب » .

فتزوجها « عاصم بن عمر بن الخطاب » فولدت له « ليلى » المعروفة باسم أم عاصم فتزوجها « عبد العزيز بن مروان بن الحكم » فأنجبت ولدا أسمته باسم جدها « عمر ».. فكان « عمر بن عبد العزيز » خير خلف لخير سلف ، عرفوا شرع الله فى اختيار الزوجة الصالحة ، فرزقهم الله الذرية الصالحة وهذا أول درس نتعلمه من تلك السيرة العطرة .

* ولد « عمر » بمصر - أثناء ولاية أبيه « عبد العزيز بن مروان عليها عام (٦١ هـ - ٦٨١م) وأحسن أبوه تأديبه ، واختار له مربين من أكبر علماء مصر وفقهائها ، فحفظوه القرآن الكريم قبل أن يبلغ العاشرة ، وعلموه الحديث وعلوم الدين واللغة والخط والحساب حتى إذا بلغ الحلم أرسله أبوه إلى المدينة المنورة تحت رعاية « عبد الله بن عمر » « عم أمه» ليتلقى العلم عن علمائها . حيث المدينة يومئذ منارة للعلم والصلاح تمتلئ بالعلماء والفقهاء والعباد والصالحين ، إنها مجتمع يموج بالنبوغ الإنسانى ، وكان جديراً أن يفجر فى «عمر بن عبد العزيز » كل الطاقات الخلاقة الكامنة فيه : من وعى دينى بعيدا عن الزيف وخداع الأمويين . ووعى سياسى يعرف فيه مظالم بنى أمية ، ويعرف تيارات الرأى العام الحقيقية تجاه الحكم ، بعيدا عن طمس الحقائق التى يمارسها رجال الحكم نحو الشعب . ووعى اجتماعى يتعرف به على طبقات المجتمع المختلفة ومشاربها وتكوينها ، ومعاناة كل طبقة ومشاكلها ، مما كان له أكبر الأثر على اتجاهاته الفكرية والعقائدية أثناء فترة الحكم .

وهذا درس آخر نتعلمه فى تربية جيل واع مسلم : ثقافة دينية على أسس متينة مع حرية فكرية تتلائم مع روح العصر وتلتقى مع اتجاهات العقيدة وتتفاعل معها .

بالنسبة إلى شخصية « عمر بن عبد العزيز » وعوامل الوراثة :

إن جزءاً كبيراً من عبقرية « عمر بن عبد العزيز » ونبوغه ، ترجع إلى شخصيته القوية التى حباه الله بها وقد عبر هو عن ذلك بقوله : « **إن لى نفسا تواقة لا تنال شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه** » . فإن نفسا تتوق إلى معالى الأمور ، لهى نفس جديرة أن تزيدها مبادئ الإسلام رفعة وعزة ، وتحيطها بسياج من نور يبهر الأنظار ، وتصبح سيرتها العطرة قدوة وسلوكا لكل من أراد صلاح حاله وصلاح أمته . ولا شك أن تلك النفس التواقة ، زادتها الوراثة وسلوك الأب ومنهاجه فى الحياة تألقا وضياء ، حيث كان « عبد العزيز ابن مروان » تدفعه نفسه إلى معالى الأمور على نحو عجيب : فقد تدارس

اللغة العربية وقواعدها حتى صار مضرب المثل فى الفصاحة . وأذاع بين الناس فى مصر وأفريقيا - حيث انتظمها حكمه وسلطانه - أن الذين يتعلمون العربية ويجيدونها ، سيكون عطاؤهم من بيت المال أوفى من الآخرين » [1] .

وكان أجود أمراء بنى أمية جميعا وأسخاهم ، وكان شعاره فى هذا : « **وعجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحسن الثواب** » ؟!

كذلك كانت نفسه تواقة للتقوى ومخافة الله ، وعبر عن هذه الخشية لربه حين أدركه مرض الموت بقوله : « **وددت أنى لم أكن شيئاً مذكوراً . ولوددت أنى دفقة فى هذا الماء الجارى أو نبتة بأرض الحجاز** » !!

إنه درس مفيد نتعلمه فى رحلتنا مع ذلك الخليفة الزاهد : إنه درس السلوك والقدوة وأهميتها فى صقل شخصية الأبناء ودعم اتجاههم الروحى ، فأبناؤنا هم حصاد سلوكنا ، ونحن قدوة لهم .

- بالنسبة إلى الظروف المحطية به :

تضافرت ظروف الحياة على إضافة عوامل جديدة فى دعم شخصية « عمر بن عبد العزيز » وصقلها وانطلاق مواهبه وعبقريته ، فعندما مات والده « عبد العزيز بن مروان » بمصر ، ضمه الخليفة « عبد الملك بن مروان » - عمه - إليه وزوجه ابنته « فاطمة » . و«عبد الملك » هذا كان طويل الباع فى الفقه والعلم والشعر . وكان فى الفقه يُضاهى بعروة بن الزبير وسعيد بن المسيب . قال عنه الشعبى : « ما ذاكرت عبد الملك حديثا إلا زادنى فيه ، ولا شعرا إلا زادنى فيه » .

وقال هو عن نفسه : « شيبنى ارتقاء المنابر وخوف اللحن » .

وهذا درس آخر فى دور العلم والفقه فى صنع قادة الأمم .

- بالنسبة لجهاده النفسى خلال رحلة حياته :

رغم كل ظروف الترف التى أحاطت بعمر بن عبد العزيز ، فإن إيمانه العميق بالله وجهاد نفسه ضد البطر والكبر والعجب والظلم و . . . قد حماه من آفات المال والنعيم إذا تسللت إلى النفس ووجدت فيها مرتعا خصبا . ولكنه لم يغتر بالمال ولا الجاه ، وأشربت نفسه حب العلم ، الذى زاده من الله خشية وخوفا من حسابه . وزاده خضوعا لله وتعظيما له ، وزاده تقديراً للأمور وسدادا فى الرأى .

---

(1) معجزة الإسلام (عمر بن عبد العزيز) خالد محمد خالد - ص ٣٩

فعندما اختاره الخليفة الأموى - الوليد بن عبد الملك - ليكون والى المدينة وحاكمها وهو فى سن الخامسة والعشرين ، لم ينظر إلى الأمر إلا على أنه أمانة فى عنقه ومسئولية أمام الله . وأعلن بمنهاجه الجديد أنه لا يصح إلا الصحيح ، وأن الخير لا الشر والصدق لا الملق ، والاستقامة لا الزيغ ، هى دستور إمارته ومنهج عصره .

وزاد جهاده النفسى وتعاظم ، عندما تولى الخلافة الكبرى بعد موت سليمان بن عبد الملك ، فتنازل عن كل أملاكه هو وزوجته ، وبعد عن ترف الدنيا الزائل ، لأنه شعر بثقل الأمانة الملقاة على عاتقه ، وراحت كلماته تدك حصون الظلم والطغيان :

« والله لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل إلا بتقطيع أوصالى وأعضائى لأمضيت ذلك وأنا سعيد » !!

« ووالله لو لبثت فيكم خمسين عاما ما أقمت إلا ما أريد من العدل » .

- وفاة الخليفة الزاهد :

توفى عام (١٠١- هـ - ٧٢٠ م) عن عمر يقارب أربعين عاما ، حيث مات مسموماً من أنصار الظلم من بنى أمية ، الذين كرهوا عدل عمر ، وخافوا على ملكهم وممتلكاتهم التى صادرها لصالح المسلمين ، ولتحقيق العدل الاجتماعى وعدالة التوزيع وضمها إلى بيت المال ، وإذا كانوا استطاعوا أن يحققوا أطماعهم الزائفة بموت عمر ، فإن الله باق والحق لهم بالمرصاد إلى قيام الساعة ، ولن تموت معانى الحياة الحرة الكريمة فى صدور المؤمنين بها وستظل البشرية تنشد فى ذكرى عمر ، القدوة الطيبة فى تحقيق العدل ، الذى هو ميزان السماء والأرض ، ولن تذوق الدنيا الأمن والرخاء ، إلا برفع لواء العدل والحق والخير ، كما رفعه عمر بن عبد العزيز ، واستحق به تلك المكانة السامية فى قلوب المسلمين أجمعين إلى يوم الدين .

* * *

تفصيل بعد إجمال
من أين نبدأ ؟

إن الذى يحاول الكتابة بالتفصيل عن حياة « عمر بن عبد العزيز » يواجه بلا شك حيرة شديدة ، لأنه يقف أمام بحر متلاطم الأمواج عظيم اللآلئ والأصداف ، فكيف يمكن الخوض فى تلك الأمواج ، فضلا عن الغوص فى أعماق ذلك البحر العميق الأغوار لاستخراج بغيتنا وتحقيق مرادنا .

فحياة الإنسان سلسلة متشابكة الحلقات ، لا يمكن فصل أولها عن آخرها ، وتؤثر كل مرحلة فى المرحلة التى تليها ، وتغرس فيها بذورا ، تورق أشجارا وثمارا مختلفة الأنواع والأشكال والمذاق .

و « عمر بن عبد العزيز » من رجال الإسلام المؤمنين المخلصين ، الذين ساروا على درب الإيمان ، وعشقت نفوسهم مبادئه ، وتغلغلت فى كيانهم منذ نعومة أظفارهم ، فلم تزده الأعوام إلا نضجا وتألقا ، يبهر الأنظار ويأخذ بمجامع القلوب ويبهر العقول .

وليس أدل على ذلك من موقف امبراطور الروم « ليو الثالث » وقد كان خصما عنيدا لدولة الإسلام . لا يكاد يبلغه نبأ وفاة أمير المؤمنين « عمر بن عبد العزيز » حتى يبكى بكاءاً مراً ، أذهل حاشيته وأساقفته ، فسألوه فى ذلك فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق وأجمع ما قيل فى تأبين أمير المؤمنين ، لأنها شهادة تصدر من خصم لا ينتظر منه المجاملة أو جنوح الهوى . فقال : « مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل . وليس ينبغى أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد الله فى صومعته . إنما العجب لهذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها ! ولقد كان حريا أن يعجل به ، فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً » !

إن رثاء إمبراطور الروم هذا ، قد حوى فى مضمونه إعجاز الرسالة الإسلامية ،بجعل شريعتها تصوغ رجالا صناعا للحياة ، وليسوا رهبانا فى الصوامع ، رجالا ينطلقون فى آفاق الدنيا ، ينشرون فى ربوعها العدل والحرية والمساواة ، ويرفعون راية الحق عالية خفاقة ، ويسطرون فى أعماق التاريخ صفحات مشرقة ، تثير إعجاب البشرية جمعاء ، بمدى قدرة هذا الدين الحنيف على تغيير المجتمعات ، إذا مس الإيمان شغاف القلوب ، وصدقت العزائم على الأخذ بمنهاجه القويم .

وإن التغيير الذى حققه الخليفة « عمر بن عبد العزيز » خلال مدة خلافته الوجيزة التى لم تستمر أكثر من عامين وخمسة أشهر ، لأكبر إمبراطورية فى العالم وقتها ، تمتد من حدود الصين شرقا إلى بلاد الأندلس غربا وأفريقيا جنوباً ، نقول إن هذا التغيير يعتبر بحق إعجاز بمعنى الكلمة ، وتجربة رائدة لتجارب التنمية بجميع أنواعها « السياسية والاجتماعية والاقتصادية » تستحق الدراسة والتأمل ، لتكون لنا حافزاً نعبر به هوة التخلف التى نعيشها ونجلب بها العار لديننا ، فعيب علينا عظيم أن ندين بالإسلام ديناً، ونعيش التخلف واقعا حيا ، نخضع للتبعية الناتجة عن الفقر ، وعدم تملك القرار لأننا لا نملك لقمة عيشنا ، وينظر إلينا العالم نظرة احتقار وازدراء ، لأننا كسالى لا نعرف كيف نستغل إمكانياتنا الاقتصادية ، بما فيها من موارد طبيعية وقوى بشرية وأموال نودعها فى بنوك أجنبية ، يستغلونها هم بذكائهم وطموحهم ، فيزدادون تقدما ، ونزداد نحن تخلفا،وتزداد نفوسنا حسرة لذلك الواقع المرير الذى تعيشه أمتنا الإسلامية .

ولذلك فإن حياة « عمر بن عبد العزيز » سنتناولها منذ اللحظة التى بدأ يحيى فيها الأمة الإسلامية ، من هاوية الموات الروحى التى كادت تتردى فيها ، وتنفك معها عرى الأمة وبنيانها الاجتماعى والاقتصادى ، نتيجة طغيان الظلم والفساد والانحلال فى عصر الدولة الأموية .

وبالتالى فهذه دراسة متواضعة عن دور الخليفة « عمر بن عبد العزيز » فى الإصلاح السياسى والاجتماعى الاقتصادى ، كتجربة رائعة للتنمية الشاملة على جميع القطاعات ، ندعو الله أن تتبعها دراسات أخرى تكون عوناً لنا على تحقيق التقدم لأمتنا الإسلامية جمعاء .

* * *

« إن للسلطان أركانا لا يثبت إلا بها : * فالوالى ركن * والقاضى ركن * وصاحب بيت المال ركن * والركن الرابع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز » .

الجزء الأول

دوره فى الإصلاح السياسى

يعتبر ما أنجزه « عمر بن عبد العزيز » ثورة سياسية بكل المفاهيم ، خلال فترة حكمه الوجيزة ، ولكنها على قصرها اشتملت على نواحى إصلاح عديدة ، تعتبر منهاجاً متكاملاً لنظام حكم يقوم على دعائم ثابتة فى الإصلاح السياسى ، تمتد آثاره إلى بقية قطاعات الدولة فتحقق لها النمو والازدهار .

ولقد أصدر علماء التنمية الحديثة آراء شتى وأفكاراً متنوعة ، فى كيفية تحقيق التنمية الاقتصادية : هل تكون على مستوى الدولة ككل ، مما يصعب تحقيقه بإمكانيات الدولة المتخلفة الضعيفة ؟ أم تكون على مستوى قطاع واحد يسمى القطاع القائد وهو يقود التنمية فى شتى القطاعات ؟

فإذا نظرنا إلى تجربة « عمر بن عبد العزيز » نجدها تجربة فريدة فى نوعها ، ثرية فى أفكارها ، مثمرة فى نتائجها إلى أبعد الحدود :

- **فمن ناحية العنصر البشرى :** يمكن القول إنها تجربة الرجل القائد ، الذى استطاع بعظمة عقيدته وقوة إرادته ، أن يحدث هذا التغيير الشامل المذهل .

- **ومن ناحية الوقت :** نجد أنه إعجاز هائل ، أن يتم هذا التحول العظيم فى تلك الفترة الزمنية التى لا تقدر فى عمر الشعوب إلا كعشية وضحاها . ولقد ظلت دراسات التنمية تدرس تجربة اليابان كتجربة رائدة ، حيث استطاعت أن تعبر التخلف إلى التقدم خلال ربع قرن ، ويا ليتهم درسوا تجربة « عمر بن عبد العزيز » الذى حقق تقدما سياسياً واجتماعياً واقتصادياً للدولة الإسلامية ، التى تمتد من أقصى الشرق على حدود الصين إلى أقصى الغرب فى الأندلس ، خلال تسعة وعشرين شهراً .

- **ومن ناحية النتائج :** عرفت الشعوب العدالة والديمقراطية الحقيقية (الشورى) والمساواة والحرية ، وعدالة توزيع الثروات ، وكيفية مواجهة المشكلة الاقتصادية بشطريها (الموارد والحاجات) فعرفت كيفية زيادة الموارد ، وتقليل الحاجات بقناعة الإيمان بحد الكفاية ، فعاشت الدولة الإسلامية من جديد عصر الازدهار ، الذى تظلله وترعاه مبادئ الحق الإسلامية .

– **ومن ناحية الإمكانيات** : لم تلجأ الدولة آنذاك للاستدانة لتحقيق أهدافها ، لأن الاستدانة معناها الاستكانة ، وتبعية القرار السياسى ، إنما أصر « عمر بن عبد العزيز » على صيانة المال العام ، والحفاظ عليه بشتى الطرق ، بدءاً بنفسه ، ورقابة على غيره من الولاة وجميع موظفى الدولة . وهذا بلا شك يوفر مورداً عظيماً للميزانية « بيت المال » . يعمل على تحقيق التنمية الشاملة .

– **ومن ناحية الوعى الملائم لعملية الإصلاح** : بدأ « عمر بن عبد العزيز » بنفسه ، فألزمها بمنهاج الشرع ، ثم اختار ولاته بميزان دقيق فى الصلاح والتقوى ، ثم إتجه إلى الشعب واستحثه على الإبلاغ عن الظلم والفساد ، وكفل لمن يبلغ عن ذلك مصاريف الانتقال والإقامة . .وهذا ما يسمى بلغة العصر الحديث : تكوين رأى عام قوى يعرف كيف يدافع عن حقوقه ويوقف الظالمين عن التمادى فى غيهم .

منهاج الإصلاح السياسى :

وإذا حاولنا تفصيل الإصلاح السياسى فى عهد الخليفة الزاهد ، فإن هذا أمر يحتاج إلى مجلدات ضخمة ، لأنه يستحيل الفصل بين قطاعات الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فكلها مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، فالشعب واحد ، والحاكم واحد ، والمصلحة واحدة . ولكن يمكن إجمال منهاج الإصلاح السياسى ، الذى قام به عمر بن العزيز ، فى أربع دعائم رئيسية تتبعها نقاط تفصيلية :

أولا : تحرى الكفاءة فى العناصر القيادية .

ثانيا : إقامة دعائم الفكر السياسى الإسلامى : (من عدل وشورى ومساواة وحرية) .

ثالثا : مجابهة التطرف الفكرى .

رابعا : تحقيق السلام العام فى الدولة .

* * *

أولا : تحرى الكفاءة فى العناصر القيادية

لا أحد ينكر أهمية القيادة فى توجيه المجتمعات ، فالقيادة هى صاحبة القرار ، وهى التى تقوم على متابعة تنفيذه ، والرقابة على القائمين بتنفيذه .

ونظراً لأهمية القيادة القصوى ، فى إحداث أى تغيير فى المجتمع أو عرقلته ، فقد وضع لها الرسول ﷺ مواصفات خاصة ، لتحقيق التطور المطلوب فى المجتمع ، تلك المواصفات هى بعينها التى حرص « عمر بن عبد العزيز » على مراعاتها فى اختيار ولاته،

منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها الحكم ، حيث هدم جهاز الدولة الظالمة القديم ، وأقام جهاز الدولة السياسى الجديد ، الذى يتلائم وروح الحاكم الوثابة ، نحو رفع راية الحق والعدل عالية خفاقة.

فبدأ بأن عزل العمال والولاة الذين ولاهم من سبقه من الخلفاء ، واختار بدلا منهم «أصلح من قدر عليه » وأقرب من يستطيعون معه وضع العدل فى موضع الظلم ، فسلك عماله طريقته (١) .

وهو لم يتوان فى اتخاذ قراره هذا ، بل بدأه وهو على قبر الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك ، وفور مواراة جثمانه التراب (٢) : فأعلن عزمه على إجراء تغييرات جذرية فى جهاز الدولة ، وأصدر عددا من قرارات التغيير للولاة .

فما هى مواصفات القيادة الصالحة التى استعان بها عمر بن عبد العزيز لاختيار ولاته؟

١ - الإستقامة على منهج الله ورسوله :

إن الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة ، لا يحدثون تغييرا حقيقياً فى المجتمع . لأن كل الدول تقوم على مبدأ حماية القوة للقانون . أما الحكام الذين يحمون القانون وينفذونه بالقدوة ، فذلك هو الإصلاح السياسى المنشود . والخليفة يظل عاجزاً عن أداء دوره فى الإصلاح ما لم يقف معه ولاته وقضاته وأمناؤه على الأموال العامة . وهذا ما جعل عمر يقول :

« إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها . فالوالى ركن وصاحب بيت المال ركن والقاضى ركن والركن الرابع أنا » ، ولذلك راح عمر يضع الدولة كلها وهو على رأسها فى مكان القدوة ، مع ما تتطلبه من مسئوليات وتضحيات . وقبل أن يأمر ولاته وقضاته وخزنته بدأ بنفسه . ولذلك كان يقول : **« لست إلا كأحدكم غير أنى أثقلكم حملاً »** .

وأوصاهم تلك الوصية الجامعة : **« كونوا فى العدل والصلاح والإحسان بقدر من كانوا قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان »** (٣) .

ولم يقف الأمر عند حد الاختيار ، بل ظل يعطيهم دورات تدريبية ، تتمثل فى رسائله إليهم ومنها :

.. أما بعد ، فإن من ابتلى من أمر السلطان بشئ فقد إبتلى ببلية عظيمة ! فنسأل الله عافيته وعونه . وإنى أدعوك أن تقف نفسك فى سرك وعلانيتك عند الذى ترجو به

---

(١) مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٤٤
(٢) الوزراء والكتاب ، ص ٥٢
(٣) طبقات ابن سعد ، ج ٥ ، ص٢٥٢

النجاة من ربك . تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه قبل أن يتولى صلاحه غيرك . ولا يمنعك من ذلك قول الناس ، وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحا فى دينهم وأعراضهم واستر كل عوراتهم . واملك زمام نفسك تجاههم إذا هويت وإذا غضبت .

ولا شك أن حرصه على توجيه ولاته وقضاته ومراقبته المستمرة لهم ، نابع من إحساسه العميق بعظم المسئولية الملقاة على عاتقه ، وأنها أمانة تنقلب يوم القيامة خزى وندامة ، لمن لم يقم بحقها وأدى واجبه على أكمل وجه عملا بمنهج الحبيب المصطفى .

- عن يزيد بن أبي سفيان : قال لى أبو بكر الصديق رضى الله عنه حين بعثنى إلى الشام : يا يزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة وذلك أكثر ما أخاف عليك بعدما قال رسول الله ﷺ : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم » . رواه الحاكم .

- وعن ابن عباس رضى الله عنه مرفوعا أن النبى ﷺ قال : « من ولى عشرة فحكم بينهم بما أحبوا أو بما كرهوا جئ به مغلولة يده . فإن عدل ولم يرتش ولم يحف فك الله عنه . وإن حكم بغير ما أنزل الله وارتشى وحابى فيه شدّت يساره إلى يمينه ثم رمى به فى جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة عام » . رواه الحاكم عن سعدان بن الوليد عن عطاء.

إن محاولة الاستقامة على منهج الله ورسوله ، هى التى شيّبت عمر بن عبد العزيز ، كما شيّبت من قبل جده عمر بن الخطاب ، عندما أصبح كل منهما يحمل أمانة الحكم على رأس الجهاز السياسى للدولة الإسلامية ، وهى التى جعلت كلا منهما يردد تلك المقولة الخالدة التى أصلحت حال الأمة الإسلامية فى زمانها « ماذا تقول لربك غدا ؟ » . وياليت كلا منا يرددها لإصلاح أحوالنا وحال أمتنا بأسرها ، فكل منا قائد فى موقعه ، وكل منا مسئول عن رعيته ، والذى يطبق شرع الله فى أسرته ، يخط فى نفس الوقت السياسة العامة للدولة مستقبلا ، فأطفال اليوم هم شباب الغد ، الذين سيحملون على عاتقهم أمانة الحكم فى المستقبل ، سواء فى الجهاز السياسى أو الإدارى أو القضاء أو الشرطة أو . . .

ولا شك أن رقابة الضمير هى أعظم أنواع الرقابة ، التى تحقق الإنجاز الحضارى المطلوب فى جميع الميادين ، لأنها رقابة أصقلتها العقيدة ، ويزيد توهجها خشية الله ، وماذا نقول له غدا؟

٢- سرعة البت فى القضايا التى تمس مصالح الجمهور :

إن استجابة القيادة السريع تجاه مشاكل الجماهير ، دليل على رهافة الحس واستقامة الوجدان وحضارة الشعوب ورقيها . ولذلك فليس من المستغرب أن يكون الإسلام هو الذى أرسى ذلك المبدأ السياسى ، مما حقق التطور السريع للأمة الإسلامية :

– عن أبى السماح الأزدى عن ابن عم له من أصحاب النبى ﷺ أنه أتى معاوية فدخل عليه فقال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : من ولى أمر المسلمين ، ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذوى الحاجة ، أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته ، وفقره أفقر ما يكون إليها » . رواه أحمد وأبو يعلى .

– وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من ولى شيئاً من أمر المسلمين لم ينظر الله فى حاجته حتى ينظر فى حوائجهم » رواه الطبرانى .

وقد أرسى عمر بن عبد العزيز ذلك المبدأ بنفسه ، وألزم به ولاته ، مما أشاع روح العدل بين جميع الشعوب التى أظلتها راية الإسلام ، ومع العدل تحققت الرفاهية والحضارة للأمة الإسلامية جمعاء .

– ومن أمثلة ذلك ما يحكيه لنا التاريخ : أن حمل البريد يوما رسالة إلى عمر بن عبد العزيز من الجيزة بمصر . صاحبة الرسالة « فرتونة السوداء » تشكو إلى أمير المؤمنين أن لها حائطاً متهدما ، يتسوره اللصوص ويسرقون دجاجها ، وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل . ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة ، وهو فى عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب إلى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل » هذا الخطاب :

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أيوب بن شرحبيل :

سلام عليكم . أما بعد فإن فرتونة السوداء كتبت إلى تشكو قصر حائطها ، وأن دجاجها يسرق منها ، وتسأل تحصينه لها . فإذا جاءك كتابى هذا ، فاركب بنفسك وحصنه لها »

ونفس البريد الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر : حمل كتاباً آخر من الخليفة لفرتونة السوداء : من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء :

« سلام الله عليك . أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يُقتحم عليك ويُسرق دجاجك . وقد كتبت إلى « أيوب بن شرحبيل » آمره أن يبنى لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين إن شاء الله » .

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن « فرتونة » حتى وجدها ، فإذا هى سوداء مسكينة ، فأعلى لها حائطها .

٣- الرحمة من الراعى على ما استودعه الله من رعية :

إن الرحمة إذا دخلت فى نسيج الفكر السياسى ، تغيرت موازين الأمة ومقدراتها : ولا يهم ساعتها حجم موارد الثروة الاقتصادية ، لأنه قد تكون الدولة غنية ولكن تتركز

ثرواتها فى أيدى قلة ، يسيمون بقية الشعب العذاب والهوان ، أو قد تتسلط الأهواء وجبروت السلطان فيحرم الشعب من الهناءة وراحة البال ، أو قد تتسلط نوازع القادة ، فتذيق الشعب الأمرين من الطغيان والظلم والفساد .

ولذلك تتبين عظمة الشريعة الإسلامية ، عندما جعلت الرحمة من أساسيات مفهوم الفكر السياسى الإسلامى ، لأنها تعنى ذروة الرقى للعقل الإنسانى ، وهو يتعامل مع البشر ، الذى اتسم بالضعف وحاجته إلى الرفق والرحمة .

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ [آل عمران ١٥٩] .

ولذلك فقد وضع الرسول ﷺ الرحمة سلوكا تطبيقيا فى السياسة الإسلامية ، وجعله أمرا تكليفيا :

- عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى هذا : «اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به » (رواه مسلم والنسائى) .

فإذا عرفنا هذا ، لم نعجب حين نرى الخليفة الزاهد يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى فلا تكوينه أبدا » .

- ولقد كان من حق حكام الأقاليم قبل عهده ، أن ينفذوا حكم القتل فيمن يشاءون عدلا أو ظلما . فلما ولى حرمهم هذا الحق ، وأصدر أمره ألا ينفذ حكم القتل فى أحد حتى يطلع بنفسه على قضيته ويرى فيها رأيه . وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً : **«والله لا أصلح الناس بهلاك دينى »** .

ولقد استمسك بالمنهج النبوى إلى أبعد الحدود ، فشملت رحمته الحيوانات أيضا ، لأنه أيقن أن فى كل ذات كبد رطبة أجرا . ونرى ذلك فى مواقف عدة منها :

* عندما كتب لواليه على مصر :

« أما بعد ... فقد بلغنى أن الحمالين فى مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تطيق .. فإذا جاءك كتابى هذا ، فامنع أن يحمل البعير أكثر من ستمائة رطل » [١] .

---

(١) أبو يوسف (الخراج) ص ١٨٦ ، طبعة المطبعة السلفية ، القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

ويبصر فى بعض جولاته أناسا يحملون مقارع ، فى أسفلها حديدة مدببة ، ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر فى مجلسه ،حتى يوقع قرارا يحرم استخدام هذه المقارع. . !!

* وتأتيه يوما سلتان كبيرتان مملوءتان من رطب الأردن فيسأل : ما هذا ؟ فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين . ويعود يسأل : وعلام جئ به ؟ فيقال : على دواب البريد . فيهز رأسه ويقول : لقد حملتموها فوق طاقتها .. بيعوا الرطب واشتروا بثمنه علفا لدواب البريد التى حملته !

٤ - الاجتهاد بما يحقق سرعة الإنجاز :

إذا كان الأمر الشائع فى الدول المتخلفة « أن يوم الحكومة بسنة » فإن عمر بن عبد العزيز قاد الأمة الإسلامية إلى أرقى درجات الحضارة ، حيث جعل « يوم الحكومة حافلا بالإنجازات العظيمة » . فهو لا يجرى حسابه الختامى كل سنة ، ولا كل شهر ، ولا كل أسبوع ، بل لكل يوم مسئوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوما على آخر ، لأن لكل يوم إنجازاته وأحماله :

بلغ به التعب أشده ، فسأله بعض خاصته أن يريح نفسه فيقول لهم : « ومن يجزى عنى عمل اليوم » ؟ فيقولون له : تنجزه فى الغد . فيجيب : « لقد فدحنى عمل يوم واحد حتى سألتمونى أن أريح نفسى ، فكيف إذا اجتمع على عمل يومين » ؟

إنه كان القدوة الحسنة فى سرعة إنجاز الأعمال ، ولم يكتف بهذا بل ألزم ولاته بذلك لتستقيم الأمور فى الأمة :

كتب عمر إلى محمد بن حزم عامله على المدينة : « أقسم فى ولد على بن أبي طالب عشرة آلاف دينار » .

فتلكأ أمير المدينة ، لأنه يعلم أن بنى أمية يرفضون هذا ، وهو كغيره من بنى أمية وبنى مروان ، يحمل لبنى على بغضاء شرسة .

وعلم عمر أن أمير المدينة لم يقسم فى أولاد على دينارا ولا درهما ، وأنه يضيع الوقت فى حصر عدتهم ، فارسل إليه أمير المؤمنين يستحثه ، فرد أمير المدينة : « إن عليا قد ولد له فى عدة قبائل من قريش ، ففى أى ولده أقسم عشرة آلاف دينار ؟ فكتب إليه عمر ساخرا به : « لو كتبت إليك فى شاة تذبحها وتوزع لحمها على الفقراء لأرسلت إلىّ تسألنى، ضأنا أم ماعز ؟ فإن أجبتك أرسلت إلى تسألنى : كبيرة أم صغيرة ؟ فإن أجبتك أرسلت تسأل : بيضاء أم سوداء ؟ إذا أرسلت إليك بأمر فتبين وجه الحق فيه ثم أمضه » .

إن « عمر بن عبد العزيز » حاول برده هذا ، بعث روح الاجتهاد فى القيادة ، لأن الاجتهاد يحتل مكان الصدارة فى الشريعة الإسلامية ، حيث يبعث الحياة فى الأمة ، ويقضى على الروتين الجامد وعرقلة الإجراءات ، التى توقف مصالح الجماهير . ويظهر ذلك بوضوح عندما أرسل الرسول ﷺ معاذ بن جبل عاملا على اليمن :

- سأله الرسول قائلاً : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال : « أقضى بكتاب الله» قال : « فإن لم تجد فى كتاب الله » ؟ قال : « فبسنة رسول الله » قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله ؟ قال : « أجتهد برأى ولا آلو » قال : فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى به رسول الله » .

(رواه الترمذى وأبو داود عن أبى هريرة) .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ،وإذا حكم واجتهد فأخطأ ، فله أجر » . (متفق عليه) .

لم يكتف عمر بن عبد العزيز بتلك المواصفات السابقة لاختيار القيادة الكفء ، بل استعان بأهل الرأى الصائب والصالحين ، من المشيرين فى اختيار الولاة والعمال والقضاة وسائر أركان جهاز الدولة الجديدة . فلقد كان يوقن أن الإصلاح الحقيقى للدولة ، يحتاج إلى قادة صالحين .

ولقد دارت مكاتبات بين عمر بن عبد العزيز وبين طاوس بن كيسان ، عندما استشاره عمر فى هذا الأمر ، فقال له : « إن أردت أن يكون عملك خيرا كله فاستعمل أهل الخير» . ولقد عبر عمر عن عميق اقتناعه بهذه الحقيقة عندما عقب عليها فقال : « **كفى بها موعظة** » [1] .

ولقد استشار فى اختيار جهاز دولته الجديد ، ميمون بن مهران فقال :

« يا ميمون ، كيف لى بأعوان على هذا الأمر أثق بهم وآمنهم ؟ »

فأجابه : « يا أمير المؤمنين لا تشغل قلبك بهذا . فإنك سوق .وإنما يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيه . فإذا عرف الناس أنه لا ينفق عندك إلا الصحيح ، لم يأتوك إلا بالصحيح» [2] !

ورغم صدق مقولة ميمون بن مهران هذه ، إلا أن قلب عمر وعقله، ظلا مشغولين بهذا الأمر العظيم، أمر اختيار القادة الصالحين ،لتحقيق الإصلاح المطلوب للأمة الإسلامية.

وكمثال لإصدار قراره النهائى فى اختيار القائد : عندما أراد أن يختار لخراسان والياً

---

(١) (مروج الذهب) ج ٢ ، ص ١٤٤ (٢) طبقات ابن سعد ، ج ٥ ، ص ٢٩١

طلب مشيرا صالحا يستشيره فيمن يوليه ، فأتوه بواحد من القراء الصالحين الثقاة الثوار هو أبو مجلز لاحق بن حميد ، فعرض عليه عمر أسماء اثنين من المرشحين للولاية ، وطلب منه الموازنة للاختيار :

- سأله عن : عبد الرحمن بن عبد الله القشيرى ؟ فقال : عنه أبو مجلز :

« إنه يكافىء الأكفاء ويعادى الأعداء ، وهو أمير يفعل ما يشاء ، ويقدم إن وجد ما يساعده» .

- ثم سأله عن عبد الرحمن بن نعيم ؟ فقال : « إنه ضعيف لين ، يحب العافية وتأتى إليه » . وكان عمر يدرك أن الناس بعد سنوات من التجبر والقهر ، هم أحوج ما يكونون إلى ولاة يحبون العافية ، وبابهم مفتوح لشكاوى المظلومين . . . فاختار عبد الرحمن بن نعيم . قائلا: « **الذى يحب العافية وتأتى إليه أحب إلى** » [1] .

هكذا اختار القائد المناسب للظرف المناسب ، وواصل اختياراته ، حتى هدم بنية الجهاز السياسى القديم الظالم ، واستبدل بها بنية جديدة عادلة . فكان عامله وواليه :

* على المدينة : أبو بكر محمد بن حزم ، وقاضيها : أبو طوالة .
* وعلى الكوفة : عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب . . وكاتب الحرب والخراج فيها : أبو الزناد . . وقاضيها : عامر الشعبى .
* وعلى البصرة : عدى بن أرطاة - وقاضيها - لبعض الوقت - الحسن البصرى .
* وعلى اليمن : عروة بن محمد بن عطية السعدى .
* وعلى الجزيرة : عدى بن عدى الكندى .
* وعلى أفريقيا : إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر .
* وعلى دمشق : محمد بن سويد الفهرى (وهو من المعتزلة) .
* وعلى خراسان : الجراح بن عبد الله الحكمى .
* وعلى سمرقند : سليمان بن السرى .

ولم يكتف عمر بهذا التغيير ، كما لم يقف بمسئوليته عند حدود إصدار المواعظ أو الأوامر والنواهى ، بل كان دائم المراقبة على هؤلاء الولاة والعمال . فهو يكتب إلى أحد عماله ، محذراً متوعدا فيقول : « **لقد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما عدلت وإما اعتزلت ... والسلام** » [2] .

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٦١

(٢) مروج الذهب ، ج٢ ، ص ١٤٥

وزيادة فى الرقابة على الولاة لتصحيح مسارهم ، أعلن أن سبيل المظلوم إلى منزل الخليفة ومجلسه يجب أن يفتح ، بل أعفى المظلوم من طلب الإذن فى الدخول على أمير المؤمنين فقال : « **ومن ظلمه عامله فليس عليه منى إذن فليأتنى** » [1] .

وكان دائم الموالاة على إرسال الثقاة ، يستكشفون أحوال الرعية ، ويلتقطون أخبار الولاة والعمال . بعث إلى خراسان : بشر بن صفوان ، وعبد الله بن عجلان ، وخالد ابن سالم « ينظرون ظلامات الناس من نظام خراجها » عندما اشتكوا من النظام الذى قرره عدى بن أرطأة [2] .

وطلب إلى رباح بن عبيدة أن يأتيه بأخبار الناس والولاة فى العراق وقال له :

« **حاجتى إليك أن تسأل عن أهل العراق ، وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم؟** » فلما عاد إليه رباح بن عبيدة ، وأخبره بحسن سيرتهم فى العراق ، وثناء الناس عليهم قال : «**الحمد لله على ذلك ، لو أخبرتنى عنهم بغير هذا عزلتهم ، ولم أستعن بهم بعدها أبدا إن الراعى مسئول عن رعيته ، فلابد أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به ويقربه إليه ، فإن من ابتلى بالرعية فقد ابتلى بأمر عظيم** » [3] .

ولقد عزل عمر عن خراسان ، يزيد بن المهلب ، وأدخله رغم عصبيته السجن ، بل وهم بنفيه إلى جزيرة « دهلك » فى البحر الأحمر قرب الساحل الإفريقى ، لولا أنه خاف اختطاف عصبيته له وهو فى الطريق إلى المنفى . ولقد قال عنه وعنهم : « **هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم** » [4] .

إن ما قام به عمر بن عبد العزيز يعتبر ولاشك الدعامة الأساسية والانطلاقة الحقيقية للإصلاح السياسى :

(١) **فاختيار الرجال الصالحين للقيادة** : كان تطبيقاً لمبدأ : الرجل المناسب فى المكان المناسب . . فالوظائف العامة للدولة ، تحتاج إلى الرجل الكفء ، لتحقيق الصالح العام وإشاعة روح العدل بين أفراد المجتمع ، مما يساعد على تطوره ونموه ورفاهيته . وهذا ما حدده الرسول ﷺ للسياسة الإسلامية :

- عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . (رواه الحاكم).

(٢) **المتابعة والرقابة** : إن متابعة موظفى الدولة والرقابة عليهم ،من أهم المراحل لتحقيق

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج ٥ ، ص٢٥٣
(٢) طبقات ابن سعد ، ج ٥ ، ص ٢٩٠
(٣) الخراج لأبى يوسف ، ص ١١٩
(٤) تاريخ الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٥٦، ٥٥٧

أهداف الأمة ، والحفاظ على الأموال العامة وحقوق الشعب . . والخليفة الزاهد كان يعى بحق الأمانة الملقاة على عاتقه ، ومسئوليته فى بناء الأمة الإسلامية ، وحماية شعوبها من كل دواعى السوء ، مثل التراخى فى أداء الأعمال والظلم والفساد ، وكل عوامل الانهيار والتحلل للمجتمعات . وهذا أيضاً من أساسيات الفكر السياسى الإسلامى :

– عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع » (رواه ابن حبان فى صحيحه) .

(٣) المحاسبة : إن محاسبة كل مسئول عن تقصيره ، مهما كانت درجة نفوذه أو قرابته للحاكم العام ، هى أساس إشاعة العدل فى المجتمع ، وتحقيق الإصلاح المنشود فى كل نواحيه لأن الجميع سيكون حريصا على أداء الواجب المنوط به خوف الحساب والعقاب . وهذا ما جعل الرسول ﷺ يحذر من المناصب القيادية أشد التحذير لأنها تتطلب رجلا على مستوى المسئولية :

– عن أبى ذر (رضى الله عنه) قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : يا أبا ذر : « إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » . (رواه مسلم) .

فرضى الله عنك يا أمير المؤمنين ، وجزاك خيرا عما أحييت من تعاليم الإسلام ، وكنت نورا أضاء ظلمات الجاهلية ، وعلمت الشعوب درساً لن تنساه ، إذا أرادت الحياة وعبور هوة التخلف التى تعيشها ، مهما كانت الصعاب التى تكتنفها .

وننتقل إلى الركيزة الثانية فى منهج الإصلاح السياسى الذى قام به « عمر بن عبد العزيز » .

ثانيا : إقامة دعائم الفكر السياسى الإسلامى

(من عدل وشورى ومساواة وحرية)

إن معظم إنجازات « عمر بن عبد العزيز » فى الإصلاح السياسى أنه رد الحكم إلى دعائم الفكر السياسى الإسلامى ، من عدل وشورى ومساواة وحرية ، واستطاع بعبقريته الفذة ، ويقينه الذى لا يتزعزع ولا يميل ، وإرادته الصلبة ، أن يرجع بالأمة الإسلامية إلى عصر الخلفاء الراشدين ، بعدما طال بها الأمد ، وقست قلوب رجالها ، وبعدوا عن منبع النبوة الصافى وحكمته الرشيدة ، ومنهجه الربانى السديد . ولذلك سمى « عمر بن عبد العزيز » خامس الخلفاء الراشدين ، رغم البعد الزمنى بينه وبينهم ، وضعف اليقين وتعدد الأهواء والمفاسد بين شعبه وشعوبهم . وهذا ما يعطى لإصلاحاته بعداً جديداً ،

ويجعله علامة على الطريق وأملا فى صدور المصلحين ، مهما انحدرت الهاوية بشعوبهم، وبعدت بهم المسافة عن وحى نبيهم ، فلا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

وسوف نحاول بمشيئة الله وعونه ، استعراض بعض الجوانب التى حققها الخليفة الزاهد فى إقامة العدل والشورى والمساواة والحرية ، على أن يكون معلوما لدينا أن تلك نبذات فقط سجلها لنا المؤرخون ، ولكنها لا تعكس الحقيقة كاملة ، فلكى يسود العدل بعد ذلك الظلم الفظيع ، وتسود الشورى بعد الديكتاتورية الشديدة ، وتسود المساواة بعد المحاباة لذوى القربى وذوى النفوذ والسلطان ، وتسود الحرية بعد تكميم الأفواه وامتلاء السجون وكبت الحريات . . فلابد أن يكون وراء كل ذلك جهد جبار استغرق كل الوقت واستنفذ المجهود والأعمار ، وما حديثنا إلا كعابر سبيل ، استظل فى ظل شجرة ساعة من القيلولة ثم ارتحل، أو كمشرف على الهلاك من العطش ، فأخذ بضع قطرات من بئر قد غص بالمياه ولكن الضرورة لا تبيح غير أخذ تلك القطرات . فليعلم الجميع أن الإصلاح يحتاج إلى جهد جبار ، وعزيمة لا تكل ولا تلين ، ويقين يعين على مواجهة جميع التحديات ، ويمد المؤمن بتيارات الصبر التى لا تنفذ مع صعاب الحياة المتجددة ، وهذا ما كان يتمتع به عمر بن عبد العزيز ، لأنه جاهد منذ نشأته الجهاد الأكبر ألا وهو جهاد النفس ، فهان عليه بعد ذلك كل جهاد .

فلنوقظ القلب ونحن نستمع من ذاكرة التاريخ ، إلى دور « عمر بن عبد العزيز » فى إقامة دعائم الفكر السياسى الإسلامى :

١ - دوره فى تحقيق العدل :

إن الكلام عن دور « عمر بن عبد العزيز » فى تحقيق العدل ، يدخل فى نطاق «السهل الممتنع » فكيف يمكن التكلم عن رجل تغلغل كيانه بعقيدة الإسلام ، التى تقوم على العدل أساساً ، لأنه قوام الحياة وميزانها ، وفيه تحرير الشعوب وانطلاقها فى ميدان العمل والانتاج والخلق والإبداع ، وفيه حفظ الحقوق والأموال والحرمات ، وفيه عزة النفس وأمانها وحريتها.

فالعدل عقيدة وشريعة ، تشربتها نفس عمر التواقة من مناهلها العذبة الفياضة ، حيث استمع إلى كلمات ربه ، بعقل ذكى متفتح وقلب واع شهيد ، يعرف قيمة الموعظة وعظمة من ألقاها :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ [النساء : ٥٨] .

وارتجف كيانه عندما عرف بنبأ استخلافه على الأمة الإسلامية بأسرها ، لأنه يعى بحق

عظم الأمانة التى كلف بها ، لأنه مؤمن عن يقين ، بكل ما قاله الرسول الأمين (صلوات ربى وسلامه عليه) :

- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة : قيام ليلها وصيام نهارها ، ويا أبا هريرة : جور ساعة فى حكم أشد وأعظم عند الله عز وجل من معاصى ستين سنة » . (رواه الأصبهانى) .

وإذا كان « عمر بن عبد العزيز » قد أرسل إلى الصالحين - ومنهم الحسن البصرى - ليعطوه مفهومهم عن العدل ، فليس هذا لعجزه عن استيعاب معانى العدل كاملة ، وإنما حرصا منه على بلوغ مرحلة الكمال البشرى ، فى تطبيق شرع الله ، وأداء الأمانة التى كلف بها على خير وجه . وإن استقباله لرسالة الحسن البصرى التى يصف بها الإمام العادل ليذل أعظم دلالة على أنها مسّت شغاف اليقين فى قلبه ، ومعانى العدل التى يحتويها إيمانه، فبكى ساعتها بكاء شديداً ووزع الرسالة على عماله فى الأقاليم [1] .

إن الخليفة العادل قد صار عدله مضرب الأمثال ، لأنه حارب الظلم مع أقرب الأقرباء إليه ، فاسترد كل الأراضى والإقطاعيات التى حصل عليها بنو أمية بدون وجه حق ، فى عهد الخلفاء السابقين ، رغم ما عاناه منهم من تمرد واحتجاج ، وصل إلى حد أنهم أضمروا فى نفوسهم الشر ، ودسوا له السم ، تخلصاً من مثالياته التى لا يقدرون عليها، لأنها تحرمهم من ثرواتهم وشهواتهم . إن موقفه العادل تجاه أقاربه جعله يتخطى مراتب الخطر فى الإمارة وهى الملامة والندامة والعذاب يوم القيامة ، كما أخبرنا بذلك الصادق المعصوم :

- عن عوف بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هى ؟ » فناديت بأعلى صوتى : وما هى يا رسول الله ، قال : « أولها ملامة وثانيها ندامة وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل وكيف يعدل مع قريبه » .

(رواه البزار والطبرى فى الكبير) .

نماذج من منهاجه فى العدل :

* منذ أن تولى « عمر بن عبد العزيز » إمارة المدينة ، وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو يعرف حجم المسئولية التى لابد أن ينهض بها المصلح ، حيال ما تراكم على الحياة الإسلامية من مظالم وانحرافات وتجاوزات . فعادت مدينة رسول الله ﷺ كما كانت حرما آمناً للمسلمين ، فنزح إليها الرافضون لمظالم الحجاج بن يوسف فى العراق ، ووجدوا فيها المناخ الملائم لفكرهم الثائر ضد العسف والجور ،اللذين تجسدا فى الحجاج. .

---

(١) العقد الفريد (ج ١ ، ص ٣٤ : ٣٦) .

كما وجدوا عند أميرها العقل الذى يتفهم ، والقلب المفعم بالإيمان ، ويحرص على تطبيق مبادئ الإسلام فى الحرية والعدل .

* وعندما عزله الوليد بن عبدالملك عن ولاية المدينة ، نتيجة وشاية الحجاج وكيد الكائدين الخائفين على نفوذهم ومصالحهم ، ظل « عمر بن عبد العزيز » - الطامح إلى عدل الإسلام - يوجه النقد للظلم البادى والمظالم التى يئن منها الناس . وأخذ يشكو إلى ربه ولاة الظلم والجور ، الذين اجتمعوا على حكم المسلمين ، فى مختلف الأمصار والأقاليم فكان يقول : « الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقرة بمصر ، وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكة ! . . اللهم قد امتلأت الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس » (١) .

* وبعد أن اختاره الله للخلافة ، ليحيى الأمة الإسلامية من مواتها ، صعد المنبر وخطب فى الناس ، فسمعوا منه كلاماً لم يسمعوه منذ انتهت دولة الخلفاء الراشدين . فمنذ قامت الدولة الأموية ، وأسماع الناس قد ألفت خطب الخلفاء ، التى تطلب السمع والطاعة من الناس للخليفة ، صاحب القول الفصل والقرار الواجب النفاذ (٢) .

أما عمر فإنه يعلن فى الناس أنه ليس أكثر من منفذ للشريعة ، وأن طاعته غير واجبة، إن هو عصى الله أو خالف شريعته ، وأن الإمام إذا ظلم فخرج الناس عليه وقاوموه أو هربوا من جوره ، فالظالم هو الإمام وليس الذين خرجوا عليه وقاوموه !

خطب « عمر » فقال :

« أما بعد ، فإنه ليس بعد نبيكم نبى ، ولا بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، ألا أن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله حرام إلى يوم القيامة ، ألا أنى لست بقاض ولكنى منفذ ، ألا إنى لست بمبتدع ولكنى متبع ، ألا أنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله ، ألا إنى لست بخيركم ولكنى رجل منكم غير أن جعلنى أثقلكم حملا ، ألا إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ولكن الإمام الظالم هو العاصى » (٣) .

* كتب إليه واليه على خراسان ، يستأذنه فى أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلا فى رسالته للخليفة : [إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط].

فكان رده التقى الحازم : **« كذبت .. بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم، واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين »** .

---

(١) ابن الأثير (الكامل فى التاريخ) ج٤ ، ص٢٢٢ ، طبعة القاهرة ، سنة ١٣٠٣هـ .
(٢) (عمر بن عبد العزيز ضمير الأمة وخامس الراشدين) د. محمد عمارة ، دار الشروق .
(٣) مروج الذهب ، ج٢ ، ص٢٨٦

* حول حياته إلى شعلة من العمل الدائب ، فى سبيل رد الحقوق إلى أصحابها ، وتحقيق العدل بين الرعية ، ويردد فى يقين المؤمنين الصالحين : « **والله ، لو لم ينهض الحق ويُدحض الباطل ، إلا بتقطيع أوصالى وأعضائى لأمضيت ذلك وأنا سعيد .. ووالله لو لبثت فيكم خمسين عاما ، ما أقمت إلا ما أريد من العدل** » .

* كان دائم الرقابة على عماله ، ويتحسس أخبارهم ليضمن سيرهم على المنهج الذى يرضى عنه الله ورسوله ، وتشيع فى روحه البهجة والغبطة ، عندما يرى أو يسمع أن ظلما قد دحض ، وأن عدلا قد نهض ، وأن حقا قد رُدّ لصاحبه ، فى غير جهد منه أو إلحاف : خرج مع مولاه مزاحم يوما إلى مفارق طرق بعيدة ، تعبرها قوافل المسافرين. وهناك راح وهو متنكر فى ثيابه ، يسأل الغادين منهم والرائحين . ومن بين هؤلاء رجل فى إحدى القوافل سأله عمر : « **كيف تركت الناس فى بلدك ؟** » قال الرجل: تركت البلاد الظالم بها مقهور، والمظلوم منصور ،والغنى موفور ،والفقير مجبور.

وسارع عمر بالانصراف ، وقلبه يضرع إلى الله بآيات الحمد والثناء ، لأن تلك نتائج العدل الذى أمر به الله ورسوله ، والتفت إلى مزاحم وقال له : « والله لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ، لأحب إلى مما طلعت عليه الشمس » .

* أمر عمر أن يدخل عليه أصحاب المظالم بلا استئذان ، وأمر حاجبه بألا يردوا أحدا منهم ، وأن يدخلوهم قبل غيرهم من الناس حتى الأمراء والوزراء . فلما جلس يوما لأصحاب الحاجات والمظلومين ، قام إليه رجل ذمى من أهل حمص فقال : يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله ، فقال عمر : وما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى . وكان عدد من رؤوس الناس وفيهم العباس بمجلس عمر ، فسأله: « يا عباس ما تقول ؟ » قال : نعم أقطعنيها أبى أمير المؤمنين ، وكتب لى بها سجلا . فقال عمر : « ما تقول يا ذمى ؟ » فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى . فقال عمر : « نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد . قم فاردد عليه ضيعته يا عباس » فردها عليه صاغرا وهو يجتر غيظه .

* رد كثير من المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة . فكان يكتفى بأيسر من ذلك ، فإذا عرف وجها من مظلمة الرجل ، ردها إليه ولم يكلفه تقديم البينة ، لما كان يعرف من ظلم أهله والولاة .

* جاءه رجل من أذربيجان فقال له : يا أمير المؤمنين اذكر بمقامى هذا بين يديك مقامك غدا بين يدى الله ، حيث لا براءة من الذنب . قال له عمر : « ما حاجتك ؟ »

قال: إن عاملك بأذربيجان عدا على ، فأخذ منى اثنى عشر ألف درهم ، فجعلها فى بيت المال. فقال : « اكتبوا الساعة إلى عاملها فليردها عليه » .

* وجاءه رجل يشكو عاملا له انتزع منه أرضاً ، فأمر عمر بالتحقيق فى الأمر ، فلما تبين له أن عامله ظلم الرجل ، عزل عامله ورد الأرض إلى صاحبها . وقبل أن يرحل الرجل سأله عمر : « كم أنفقت فى مجيئك إلىّ ؟ » قال الرجل : يا أمير المؤمنين تسألنى عن نفقتى ، وأنت رددت علىّ أرضى وهو خير من مائة ألف ؟

قال عمر : « إنما رددت عليك حقك فأخبرنى كم أنفقت ؟ » قال : ما أدرى يا أمير المؤمنين . قال أحرزه ، قال : ستون درهما ، فأمر له بها من بيت المال ، فأخذها الرجل وانصرف شاكرا ، فناداه عمر ، فرجع ، فقال له : « خذ هذه خمسة دراهم من مالى ، فكل بها لحما ، حتى ترجع إلى أهلك » .

إنه قد تخطى مرحلة العدل إلى الإحسان ، وهذا بلا شك يتواءم مع مرحلة اليقين التى استحق بها أن يكون خامس الخلفاء الراشدين .

* وفى تطبيقه للعدل ، عاقب أهل الجور أشد عقاب ، ليكونوا عبرة ونكالا . فقد أخرج عمر أهل بيت الحجاج من العراق ، ونزع منهم ما اغتصبوا من غيرهم ، فرد الغصوب إلى أصحابها ، أما ما أغدقه عليهم الحجاج فرده إلى بيت مال العراق ، واقتص لضحاياهم منهم ، ثم نفاهم جميعا عن العراق إلى اليمن ، وكتب لعامله عليها: **« أما بعد فإنى قد بعثت بآل أبى عقيل - أهل بيت الحجاج وهم شر بيت ، ففرقهم على قدر هوانهم على الله وعلينا . وعليك السلام »** .

* كان شعاره الذى يطبقه فى إقامة العدل والإحسان : « أيما عامل لى ظلم أحدا وبلغتنى مظلمته ولم أغيرها فأنا الظالم » .

* وجعل وصاياه لكل من ولاه ، قول جده عمر بن الخطاب : الذى سار على دربه: « **إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصم ، ساو بين الناس حتى فى النظر فى مجالس القضاء ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، راجعت فيه نفسك وأهديت فيه لرشدك ، فإن مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . ادن الضعيف حتى ينبسط لسانه ويجترئ قلبه ..** » .

تلك كانت بعض قطرات من ينابيع العدل ، التى فجرها « عمر بن عبد العزيز » فارتوت الأمة بعد ظمأ كاد يقضى عليها ، وارتاحت قلوب الرعية فى ظل حكمه ، وخفتت أنات المظلومين ، وانصرف كل فرد إلى عمله ، مطمئنا إلى الحصول على العائد الأمثل ، وحقه الطبيعى فى الحياة ، وهذا هو الإصلاح السياسى فى أجل صوره وأسمى

معانيه ، فالسياسة لغة - هى القيام على الشئ بما يصلحه . فيقال : هو يسوس الدواب - إذا قام عليها وراضها . والوالى يسوس رعيته .

وفى الحديث الشريف : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء (أى يتولون أمورهم) كلما هلك نبى خلفه نبى ، وإنه لا نبى بعدى ، وسيكون خلفاء فيكثرون » (أخرجه الشيخان) .

وتحديد مدلول « **الفكر السياسى** » فى الدراسات الحديثة ، يعد من أشق الأمور وأعقدها لأنه يشمل نظام حياة متكامل ، يتصل بأمور الحكومة والشعب ، من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات الدولية ، وحاضر المجتمع ومستقبله .

أما فى الشريعة الإسلامية : فالسياسة كلمة جامعة شاملة ، تعنى تلك القواعد والقوانين التى تحقق صلاح المجتمع مهما صغر ، بدءا من النواة الصغيرة للمجتمع ، حتى أوسع الدوائر التى تنتظم المجتمع ، وهى دائرة الدولة حيث تشمل العلاقة بين الحاكم والشعب :

- عن ابن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كلكم راع ومسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته . وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . (رواه البخارى ومسلم) .

ولقد وعى « عمر بن عبد العزيز » بحق أمانته ومسئوليته عن أمته ، فحقق العدل الذى استبشر به الفقراء وسواد الناس ، وأهل الورع من العلماء والفقهاء ، وكرهه وأنكره وجوه بنى أمية ، وأهل الأطماع والأهواء ، لأنه يحرمهم من سلطانهم وشهواتهم التى سيطرت عليهم ، ووجهت سياستهم إلى الظلم والفساد .

وهكذا سيظل العدل روح الإسلام ، وروح الشعوب والأمم ، لأنه دين الفطرة ودين الحياة الحرة الكريمة . وبالرغم من اختلاف العصور والرجال ، سيظل للعدل مكانته الرفيعة فى الإصلاح بصفة عامة ، وستظل له أشواقه فى القلوب التقية ، التى عرفت معنى الإيمان والخير ومبادئ الحق النبيلة . وصدق الإمام محمد الباقر (بن الحسين بن على بن أبى طالب) الذى قال :

«لكل قوم نجيبة ونجيبة بنى أمية : عمر بن عبد العزيز ، فإنه يبعث يوم القيامة وحده» .

٢- دوره فى تحقيق الشورى :

إن الشورى هى دعامة من دعائم الفكر السياسى الإسلامى ، وهى أمر إلهى نزل به القرآن الكريم ، على الرسول الحبيب ، لتربية المسلمين على التساند ، وتبادل الرأى

لصالح المجتمع الإسلامى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

فالشورى هى محصلة الآراء والتجارب والخبرات ، للوصول إلى القرار الأمثل ، الذى يحقق أكبر منفعة ممكنة ، ويجنب المجتمع ضياع موارد الثروة الاقتصادية فى غير محلها . وهى عنوان التقدم ونضوج الفكر وتطوره فى الأمم بصفة عامة ، ويضاف إليها فى الأمة الإسلامية أنها عنوان الإيمان ، والتقوى ، والالتزام بشرع الله كمنهاج يحقق الرقى للمجتمع الإسلامى كله :

- عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه . وإذا أراد به غير ذلك ، جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » .

(رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم) .

- وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد » . (رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير) .

- وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أمرا فشاور فيه امرءاً مسلما وفقه الله لأرشد أموره » . (رواه الطبرانى فى الأوسط » .

- عن أبى رقية بن أوس الدارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « الدين النصيحة» قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

(رواه الخمسة) .

من أجل تلك العقيدة السامية حرص « عمر بن عبد العزيز » على أن تكون الشورى سلوكا حيا ومنهاجا تطبيقياً ، فالعقيدة بدون عمل تفقد حيويتها ودورها فى إصلاح الشعوب ، وحاشا لله أن يفعل ذلك رجل أيقن بالإسلام حق اليقين وجعل إمامه خير المرسلين ، محمد الهادى إلى ما فيه رفعة المسلمين :

- فمنذ أن تولى إمارة المدينة - وهو فى ريعان الشباب - أدرك أن التحول الأساسى أحدثته الدولة الأموية منذ خلافة معاوية ، فقلبت به نظام الحكم الإسلامى الذى انتهجه الخلفاء الراشدون ، قد تمثل فى الانقلاب على فلسفة الحكم ، فبدلا من الشورى والاختيار أصبح ملكا وراثيا عضوضا ، الأمر الذى حرم الأمة من فرص الحرية فى اختيار الأصلح ومن ثم حرمها إمكانية الإصلاح فى جميع الميادين ، وازدادت المظالم التى يئن الناس

تحت وطأتها ، وازدادت معها التمردات والثورات والانتفاضات .. ولذلك كان أول ما فعله «عمر بن عبد العزيز » هو تكوين مجلس شورى للولاية : يتكون من عشرة من فقهاء المدينة وقادة الرأى فيها هم : عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وأبو بكر بن سليمان بن أبى حثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ابن أبى بكر الصديق ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عبد الله ابن عمرو بن العاص وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد .

وحدد لهم مهام مجلسهم هذا : معاونة الوالى على الحق والتنبيه على المظالم والتعديات ، والحيلولة دون الوالى ودون الانفراد بالقرار ، قائلا لهم « **ما أريد أن أقطع أمرا إلا برأيكم** » (١) .

إنه بلاشك ينضم بعمله هذا إلى قافلة المؤمنين الصالحين ، الذين امتدحهم المولى عزّ وجل بقوله : ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ [الشورى : ٣٨] .

فالشورى هنا نسيج متكامل فى مجال إعداد الشخصية المؤمنة العاملة ، وتربية النفوس وبنائها على الصدق والبذل والنضج .

- وعندما ولى خلافة الأمة الإسلامية بأسرها ، كان أسلوبه فى تطبيق الشورى يفوق كل النظم البرلمانية الحالية . لأنه طبق الشورى الخالصة الصادقة ، وساهم فى بعث رأى عام قوى ناصح وصادق وشجاع ، ينقد الأخطاء ويسهم فى إصلاحها . فقبل « عمر » كان الخليفة هو الآمر الناهى ، وكان سلطانه هو السلطان الأوحد فى جهازها ، أما عمر فقد أحاط نفسه بالأبرار ، الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولا يزيفون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل ، وإن قطعت منهم الرقاب . جميعهم حوله ، يفكرون معه ، بل لقد كان يوصى بعضهم أن يجلس تلقاءه وهو فى مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحتين على حديثه وحركاته ، حتى ينبهوه على الفور إلى خطئه بإشارة تعارف وإياهم عليها . إنهم مستشارين يشيرون عليه بالحق ، يعاونونه فى شئون الدولة وكانت له بهم اجتماعات منظمة لها تقاليد مرعية ومقررة . وبعبارة القدماء : « .. لقد كان له سمار ينظرون فى أمور الناس وكان علامة ما بينه وبينهم إذا أراد القيام أن يقول: إذا شئتم»(٢).

- لقد آمن بأن الشورى ضرورة وليست ترفا ، وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها استقام الحكم وشاع الحق واستوثق العدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم أعزة كراما .

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج٦ ، ص٤٢٧ ، ٤٢٨ ، طبعة دار المعارف - القاهرة .

(٢) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص ٢٨٢

ولذلك نظر عمر إلى منصب الخليفة كركن واحد من أركان أربعة يقوم عليها بناء جهاز الدولة فقال فى كتابه إلى عقبة بن زرعة عامل الخراج على خراسان : ... **إن للسلطان أركانا لا يثبت إلا بها :**

*** فالوالى ركن . * والقاضى ركن . * وصاحب بيت المال ركن .**

*** والركن الرابع أنا** (١) .

فهو واحد من الأركان وليس كما كان من سبقه كل الأركان .

إنه آمن بأن الحكم ليس مغنما ، وإنما مسئولية يتعاون الجميع على أدائها ، والشورى هى الطريق الوحيد والأمثل للنهوض بتلك المسئولية على وجهها الأكمل ، فهى إثراء للفكر وتبادل للخبرات لا يعرف قيمتها إلا أولوا الألباب .

إنه لم يترك فرصة لا يطلب فيها المشورة من ذوى الرأى :

- أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظى فدخلا عليه فقال لهما : أشيرا علىّ . فقال له سالم : اجعل الناس أبا وأخاً وابناً ، فبر أباك ، واحفظ أخاك وارحم ابنك .

وقال محمد بن كعب : أحبب للناس ما تحب لنفسك ، واكره ما تكره لنفسك ، واعلم أنك لست أول خليفة يموت (٢) .

- وكانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول له : إلى أين ولماذا ؟ . . هناك يربت على كتفه ويدنيه منه ويقول له : زدنى يا أخى جزاك الله خيرا .

إنه المثل الأسمى والقدوة الباهرة فى تقبل النقد ، رغم أنه كان ينتهج أروع السبل فى سياسة حكمه وليس له أخطاء تستحق النقد .

- وكتب للناس فى شتى الأقاليم : أى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة . فلا طاعة له عليكم ، ولقد صيرت أمره إليكم ، حتى يراجع الحق وهو ذميم . .

- ويبلور الخليفة « عمر بن عبد العزيز » **الإطار العام للشورى فى عهده** بذلك الخطاب الموجز البليغ :

من أراد أن يصحبنا ، فليصحبنا بخمس أو فليفارقنا :

*** يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها .**

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج٦ ، ص ٥٦٨ (٢) العقد الفريد ، ج١ ، ص٤٠

* **ويعيننا على الخير بجهده .**
* **ويد لنا على ما لا نهتدى إليه من الخير .**
* **ولا يغتابن عندنا أحداً .**
* **ولا يعرضن لما لا يعنيه .**

إنها الشورى القائمة على : التقوى ، والتعاون فى سبيل تحقيق أوجه البر ، والعلم بأمور الدين والدنيا ، وعدم التعرض لسفاسف الأمور لأنها تشغل عن عظيمها . فالشورى مهمة خطيرة ، إذ عليها قد يتوقف مصير فرد أو أمة ، ولذلك يجب أن تتم فى إطارها الصحيح ومناخها الملائم .

- ونظرا لأن الشورى تستهدف الصالح العام للأمة ، سواء فى أمور دينها أو دنياها ، فقد استشار « عمر بن عبد العزيز » أهل مشورته فى تدوين السنة ، لأنه رأى اختفاء بعض الأحاديث الصحاح واندثارها بموت حفاظها ، فوافقه أكثر الفقهاء والعلماء على جمع السنة فى كتب ، خوف اندثار الحديث الشريف وتحريفه .

وهكذا أسعد الأمة الإسلامية السعادة العظمى ، فجمع لها بين خيرى الدنيا والآخرة بمبدأ الشورى ، فقد أمات الاستبداد السياسى ، والقهر الذى ابتدعه ملوك بنى أمية وبنى مروان وأحيا السنة النبوية ، ومنهاجها الواضح فى أصول الحكم الإسلامى .

وتذوق المسلمون بعد عصور الظلام السياسى ، نور الشريعة التى تسطع بالحق ، وتقيم دعائم السياسة الإسلامية على مبادئ راسخة من العدل والشورى والمساواة والحرية .

ولا شك أن فترة حكم « عمر بن عبد العزيز » - رغم قصرها قد أعطت للبشرية جمعاء مبادئ سامية فى حكم شعوبها ، وكانت نبراساً أضاء لها عصور ظلامها .

٣- دوره فى تحقيق المساواة :

لقد تعلم « عمر بن عبد العزيز » فى شريعة الإسلام أهمية المساواة بين مواطنى الأمة على اختلاف عناصرهم وعقيدتهم ، فى الحقوق المدنية وشئون المسئولية والجزاء ، والحقوق العامة كحق العمل والتعليم والثقافة وكذلك المساواة بين الحكام والمحكومين بما يرسى قواعد العدل ، ويحقق الخير والرفاهية للأفراد والجماعات .

ولقد استنكر المولى عزّ وجل فى كتابه الكريم أشد الاستنكار : التفرقة بين مجموع الأمة ومعاملة الناس معاملة مختلفة ، لأن هذا يؤدى إلى الفساد فى الأرض ، وانهيار الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن فرعون علا**

في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ [القصص : ٤] .

ولم يدع الرسول ﷺ مجالا من مجالات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو السياسة ، إلا وأرسى فيه حجر الأساس لتحقيق المساواة على مستوى الأمة ككل ، لأنها دعامة راسخة لتحقيق الاستقرار في الأمة :

- عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم يملئوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى . وكفى بالرجل أن يكون بذيا بخيلا فاحشا » .

(رواه الإمام أحمد والبيهقي كلاهما من رواية ابن لهيعة) .

- وعن أبي موسى رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لن تؤمنوا حتى تراحموا » . قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم ؟ قال : « إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة » (رواه الطبراني) .

وهذه قمة المساواة عندما يطلب الرسول ﷺ أن تكون الرحمة (وهي نوازع قلبية) شاملة جميع خلق الله مهما تعددت جنسياتهم أو عقائدهم .

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ظُلم أهل الذمة كانت دولة العدو ، وإذا كثر الزنا كثر السباء ، وإذا كثر اللوطية رفع الله عز وجل يده عن الخلق فلا يبالي في أي واد هلكوا ! » . (رواه الطبراني) .

ومعنى كانت دولة العدو : أي ظهور شوكتهم . فالتفرقه العنصرية على أساس الدين تسمح بوجود الفتن والقلاقل السياسية ، مما يضعف الأمة ويوهن قواها ، ويسمح بغلبة العدو عليها .

وكان صلى الله عليه وسلم عظيم الإحساس بالمساواة بين الناس مهما اختلفت مراتبهم، فلم يبسط يده للناس ليقبلوها قط ، وكان يجلس بينهم كواحد منهم ولم يصدر عنه قط ما يحرج شعورهم ، فالمساواة عند رسول الله ﷺ كانت عقيدة ومنهاجا إلهيا لإصلاح حال الأمة الإسلامية ، وقد جعلها الرسول ﷺ دعامة من دعائم الفكر السياسي الإسلامي وطبقها، وهو حاكم ورسول في تشييد أمة الإسلام على بنيان راسخ من الحق ، فأحسنت أثرها في نفوس المسلمين، وأينعت غراسها، فعشق المسلمون ما سطر رسولهم في وجدانهم عن المساواة، وأصبح منهاجا وسلوكا لهم أيضاً ،يدافعون عنه بكل وجدانهم.

وسار « عمر بن عبد العزيز » على نهج الرسول والخلفاء الراشدين ، عندما جعلوا أنفسهم قدوة وسووا بين أنفسهم والرعية :

* ويتضح ذلك من خطبته بعد تولى الخلافة فقال :

« ألا إنى لست بقاض ولكنى منفذ ، ألا إنى لست بمبتدع ولكنى متبع ، ألا أنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله ، ألا إنى لست بخيركم ولكنى رجل منكم ، غير أن الله جعلنى أثقلكم حملاً » [1] .

* وكانت العادة قد جرت فى المسجد ، أن يجلس الأمراء وأركان الدولة والخاصة إلى جوار المنبر ، ثم يتأخر العامة إلى ما وراء فراغ ، يترك كى يفصل بين العامة والخاصة فى بيت الله !

وأبصر الخليفة الزاهد ذلك من فوق المنبر ، فأشار إلى العامة أن تقدموا ، فزحفوا حتى امتلأ بهم الفراغ ، واختلطت مجالس الناس [2] ، فلا فرق بين غنى وفقير ولا بين أمير وغفير ، فالكل سواسية أمام الله .

* كتب إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم والى المدينة وإلى غيره من الولاة هذا الكتاب : « إياك والجلوس فى بيتك . اخرج للناس فآس بينهم فى المجلس والمنظر . ولا يكن أحد من الناس آثر عندك من أحد . ولا تقولن : هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين . فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندى اليوم سواء . بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم . وإذا أشكل عليك شئ فاكتب إلىّ فيه » [3] .

* وأعاد اقتسام ثروة الأمة بين الناس بالعدل والمساواة [4] وذلك بصرف النظر عن الأصول العرقية لهؤلاء الناس ، فلقد جعل العرب والموالى فى الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء ، بعد أن بلغت العصبية والتمييز العرقى فى عهد أسلافه حد التفريق بين الزوج وزوجته ، إذا كانت عربية وكان هو من الموالى ، وحتى منع المسلم غير العربى من أن يؤم العرب المسلمين فى الصلاة ، كما فعل الحجاج بن يوسف فى العراق .

ولقد استهدف « عمر » من هذه التسوية بين الناس ، فى الرزق والاحتياجات الضرورية أن يعطى الذين طال حرمانهم ، وأن يحقق العدالة الاجتماعية فى توزيع الثروات .

* شملت مساواته الرعية كلها على اختلاف العقائد والأديان ، فعندما ثارت شبهات يريد أصحابها إخراج المجوس من إطار (أهل الكتاب) المتدينين بدين يعترف به الإسلام ومن ثم إخراجهم من دائرة روابط المودة ، التى تحكم علاقات المسلمين بأهل الكتاب

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص ٢٥٠ ، ٢٥١
(٢) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص٢٦٨
(٣) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣
(٤) الخراج لأبى يوسف ، ص١٦

وبالتبعية ترتيب واجبات سياسية وعقائدية ومالية لا تترتب على أهل الكتاب . عندما ثارت هذه الشبهات استفتى « عمر بن عبد العزيز » الحسن البصرى فى الأمر فأفتى بأن الرسول ﷺ قدقبل من مجوس البحرين الجزية ، وأقرهم على مجوسيتهم ، ثم أقرهم أبو بكر ثم عمر وعثمان (1) . فهم كأهل الكتاب لهم ما لهم من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات .

* وكتب عمر إلى عماله أن يرفعوا المعاناة عن الذين يعانون قسوة العيش من أهل الكتاب ، وأن يكفل لهم بيت المال عيشاً كريماً . وفى كتابه إلى عامله على البصرة عدى ابن أرطأة يقول له : « أما بعد فانظر أهل الذمة فارفق بهم ، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه ، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه » (2) . فلا فرق ولا تفرقة هنا بين المسلمين وغيرهم ، فيما تتطلبه حياة الإنسان الكريمة من معاش .. وكذلك أمر بإلغاء الزيادات التى زيدت قبل عهده فيما صولح عليه أهل الكتاب ، فى « أيلة » و«قبرص» وغيرهما من البلاد (3) .

* وها هو عمر بن عبد العزيز يواصل سياسة المساواة بين الناس بروح الإسلام وشريعته ، فى حدود الاحتياجات والضرورات وإمكانيات الدولة ، لا فرق فى ذلك بين عربى ومولى ، مسلم أو غير مسلم ، حاكم أو محكوم : فهو يخطب فى الناس فى خناصرة (بلدة صغيرة بجانب حلب) محددا ومؤكدا سياسة المساواة فيقول :

« أيها الناس .. وما يبلغنا أحد منكم حاجته ، يسعها ما عندنا إلا سددنا من حاجته ما قدرنا عليه ، ولا أحد يتسع له ما عندنا إلا وددت أنه بدئ بى وبلحمتى الذين يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم . وأيم الله لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه ، ولكنه من الله عزّ وجل كتاب ناطق وسنة عادلة ، دل فيهما على طاعته ونهى فيهما عن معصيته » (4) .. وهكذا يعلن فى خطبته معنى المساواة التى يقصدها ودوافعها : فمن يرفع إلى الدولة حاجته تلبيها ، ماوسعتها الامكانات ، على هدى من الشريعة ، التى تستهدف التسوية فى العيش بين الناس وبين الخليفة وأهل بيته « لحمته » . وإن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يقفان حائلين دون استئثاره وأهله بالعيش الطيب واللين من دون الناس .

- أمر بأن يرسل إلى كل عماله كتاباً واحداً ، يؤكد فيه ما سبق أن أمر به مرات :

---

(1) الخراج لأبى يوسف ، ص ١٣٠ ، ١٣١
(2) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص٢٨٠
(3) تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٩١
(4) الأغانى ، ج ٩ ، ص ٣٣٨٧

« .. انظر إلى كل جور جاره من كان قبلى من حق مسلم أو معاهد ، فرده عليه . فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم » .

وكتب إليه أحد عماله أن ما يجتمع فى بيت المال من الخراج يزيد عن مصارفه ، فأمره عمر : **« اقسم الفضل (الزيادة) فى أهل الحاجة من المسلمين والمعاهدين ، وقوّ به أهل الذمة »** .

رضى الله عنك يا أمير المؤمنين ، يا من رفعت لواء الإسلام عاليًا ، وأثبت للعالم أجمع عظمة الفكر السياسى الإسلامى ، وقدرته على تحقيق الأمن والاستقرار والرفاهية .

٤ ـ دوره فى تحقيق الحرية :

لقد تذوقت البشرية مع إشراقة الإسلام أروع معانى الحرية : حيث حرر الإنسان من جمود الأوهام نتيجة الشرك بالله ، وحرر العبيد من طغيان السادة وجبروتهم ، وأصبحوا لا يخافون إلا الله ، وحرر الفكر والرأى ، بدعوته إلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض والجهر بالحق ولو جابهته الصعاب والتحديات ، وحقق الحرية السياسية ، بالأمر بالشورى فى اختيار الحاكم وكل الأمور التى تمس الصالح العام ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وحقق الحرية المدنية ، بالأمن على النفس والمال والعرض ، لأن الاعتداء على أى منهم بدون وجه حق تعتبر جريمة فى الشريعة الإسلامية .

من أجل ذلك عرفت روح عمر بن عبد العزيز الحرة ، معني الحريةوقيمتها فى بناء الأمةونهضتها ، فالحرية فى الإسلام لا تعني الفوضى ، ولكنها تعني قوة الإرادة المنضبطة بمقياس الشرع ، بما يخلق مناخًا ملائمًا لنضج شخصية المسلم ، وتفجير طاقاته الإبداعية بما يحقق نهضة الأمة على سمو المقاصد والأهداف .

* ومن منطلق عشقه للحرية وحبه العارم لمدينة الرسول ﷺعندما عين واليًا عليها ، بدأ عمر بن عبد العزيز الإصلاح ، بإطلاق السجناء من غيابات سجون المدينة ومكة والطائف ، ومن خلف أسوارها التى خنقت أنين المظلومين ، وهؤلاء السجناء جميعًا من أصحاب الآراء التى تخالف رأي النظام فى الدولة الأموية . وانطلق ينشر ضوء الحرية فى الغياهب الموحشة ، على وهج ساطع من ضوء الشريعة السمحاء ، وملأت الفرحة قلوب أهل الحجاز .

* وعندما تولى الخلافة حقق الحرية فى أبهى صورها من حرية الرأي وحرية الملكية وحرية العقيدة . فأصدر أوامره الصارمة الحازمة إلي عماله فى كل الأمصار : لا تهدموا كنيسة ولا تهدموا معبدًا ولا بيت نار تصالحتم عليه ، كما أنه خفف الجزية عن غير المسلمين جميعًا ، وأبقى الأرض في يد فلاحيها ورد المظالم إلى أصحابها .

* أمر بعطاء إلى عائلات المسجونين ، لكيلا يعاقبوا بالحرمان على جريمة لم يقترفوها وإنما اقترفها عائلهم ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ . (الأنعام : ١٦٤) .

* ولم يكتف بهذا ، بل إنه أمر بإخراج ما مضى من عطاء السنين الماضية لمن كانوا حرموا العطاء ، وأمر لمن فى السجون بكسوتين كل صيف وكسوة كل شتاء ، وأكرم أهل المدينة ، وكانوا فى أغلب الأوقات مضطهدين من أسلافه ، وضاعف لهم العطاء ثلاثًا ، تعويضًا عما عانوه من قبله تحت حكم الأمويين .

* وها هو يفدى الأسرى الذميين ، الذين قاتلوا فى صفوف المسلمين فى الفتوحات السابقة ، وما كان ملوك بنى أمية ليفدوا ذميًا قط ، بل كانوا يتركونه ليسترقه الأعداء .

* وشدد عمر بن عبد العزيز فى منع السخرة واستغلال عمال الدولة لنفوذهم . حتى ليحكى عامل البريد « ربيعة الشعوذى » أن دابة البريد قد انقطعت به فى مكان من أرض الشام ،وهو فى طريقه إلي الخليفة (بخناصرة) فسخر لركوبه دابة من دواب الرعية ، فلما علم بذلك عمر استنكر فعلته وقال : « تسخر فى سلطانى » ؟ ثم أمر به فضرب أربعين سوطًا [١] .

* وكتب إلي عماله وولاته بمنع الجباة ، الذين احترفوا جباية الضرائب والمكوس عند المعابر وعلي الجسور ، لما ثبت له تعديهم للحريات العامة ، وعين فى كل مدينة رجلاً من أهلها يجمع منهم الزكاة [٢] .

* ونهى عماله أن يأخذوا زكاة أرباح التجار ، إلا إذا حال الحول ومضى العام على هذه الأرباح [٣] .

* ونهى عن قيد المسجونين بالسلاسل ، التى تعوقهم عن أداء فرائض الله ، وأمر ألا يبيت مسجون فى قيده ، إلا أن يكون مطلوبًا فى قصاص قتل ، فيخشى منه الهرب وضياع القصاص . وطلب أن يتعهد الولاة طعام المسجونين ، فيجرون عليهم من الصدقات ما يصلح أمرهم فى الطعام والإدام [٤] .وأن يتعهدوا المرضى منهم ، وخاصة من لا أهل له ولا مال . وطلب الفصل في السجون بين المخنثين الخبثاء من أهل الشذوذ، وبين غيرهم من أهل الجرائم غير الجنسية . . كما شدد على ضرورة إفراد النساء بسجن خاص.ونبه ولاته وعماله على ضرورة الاختيار الحسن ، لمن يعهد إليهم بالإشراف على السجون:«وانظر من تجعل على حبسك من تثق به ومن لا يرتشى، فإن من ارتشى

(١) طبقات ابن سعد ج٥ ، ص٢٧٦ . (٢) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص٢٧٩ .
(٣) (الأموال) لأبى عبيد القاسم بن سلام . ص٥٦٩ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .
(٤) الخراج لأبى يوسف ص١٥٠ .

صنع ما أمر به » . وأكثر من هذا طلب إلى الولاة أن يجلسوا كل يوم سبت من كل أسبوع ، فيعرض عليهم المسجونون للتفتيش على أحوالهم ، والنظر فيما يكون لهم من شكاوى أو ظلامات [1] .

* ولم تنس الدولة أبناءها الأسرى ، المحتجزين فى القسطنطينية عاصمة الروم البيزنطيين، ففرضت لهم فى العطاء وغيره ، ما يزيد على أنصبتهم لو كانوا أحرارًا ، وأعطت أنصبتهم هذه لأهليهم وذويهم ، ثم بعثت إليهم فى الأسر نفقات تكفى الضرورة، ولا تزيد عليها حتى لا يطمع فيها ويغتصبها طاغية الروم . ولقد كتب إليهم فى الأسر «عمر بن عبد العزيز » كتابًا قال لهم فيه : « **أما بعد فإنكم تعدون أنفسكم أسارى ولستم أسارى ، معاذ الله ! أنتم الحبساء فى سبيل الله واعلموا أنى لست أقسم شيئًا بين رعيتى إلا خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه . وقد بعثت إليكم خمسة دنانير لكل أسير ولولا أنى خشيت إن زدته أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزدتكم** » .

ثم أخبرهم أنه قد بعث من يفاوض الروم على فدائهم جميعًا ذكورًا وإناثًا ، عربًا وموالى، أحرارًا ورقيقًا، وأنه سيدفع كل ما يطلبه الروم من فداء، فأبشروا ثم أبشروا[2] .

* حتي الحرية فى حق تقرير المصير ، للشعوب التي انضمت تحت لواء الأمةالإسلامية لم يغفلها « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه وأرضاه : ففى سمرقند اشتكى الناس إلي واليها سليمان بن السرى ، من الظلم الذى لحقهم عندما فتح بلادهم القائد قتيبة بن مسلم وقالوا : إن بلادهم قد فتحت صلحًا ، وأنهم قد دخلوا فى إطار الدولة سلمًا ، ولم تفتح بلادهم « عنوة » بالسيف والقتال ، ولكن قتيبة زعم أنه فتحها عنوة ، حتى تعامل أرضها معاملة الأرض المفتوحة عنوة ، فيطرد منها أصحابهاوتوزع على الجند الفاتحين . وطلبوا من الوالى السماح لوفد منهم بالسفر للقاء أمير المؤمنين ، لأن قتيبة قد غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا . وقد أظهر الله العدل والإنصاف ، بخلافة عمر بن عبد العزيز ، فأذن لنا ، فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين ، يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أعطيناه ، فإن بنا إلى ذلك حاجة» فأذن لهم الوالى بالقدوم علي عمر ، فاستقبلهم وسمع شكواهم ، وكتب إلى سليمان يطلب منه أن يعاد النظر ، بواسطة القضاء في موضوع السمرقنديين . فقال : « إن أهل سمرقند قد شكوا إلىّ ظلمًا أصابهم ، وتحاملاً من قتيبة عليهم ، حتي أخرجهم من أرضهم ، فإن أتاك كتابى فأجلس لهم القاضى ، فلينظر أمرهم ، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم ، كما كانوا وكنتم ، قبل أن يظهر عليهم قتيبة [1] » . إن سجلات التاريخ لتمتلىء بلا شك فخرًا ونورًا ، وهى تسجل

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص٢٦٢ . (٢) الأغانى ، ج٩ ، ٨٥س ٣٣ ، ٣٣٨٦ .

تلك الصفحات المضيئة من تاريخ « عمر بن عبد العزيز» فقد ترك تراثًا ضخمًا فى الحكم السياسى الأمثل ، وترك دروسًا عظيمة ، وعبرا لا تنتهى على طريق الإصلاح السياسى ، فاللهم نفع بها المسلمين والمصلحين على درب البشرية ، وكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

* * *

ثالثًا : مجابهة التطرف الفكرى

إن العقل هو امتياز الإنسان على غيره من المخلوقات ، وهو مناط التكليف والخطاب الإلهي بالأمر والنهى والوعيد ، ولذلك اهتم الإسلام اهتمامًا بالغًا بحرية الفكر ، وما ينبع عنها من حرية الرأى والحرية العلمية : فللإنسان الحق فى أن يفكر تفكيرًا مستقلاً فى جميع ما يكتنفه من شئون ، وما يقع تحت إدراكه من ظواهر ، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير .

وقد أقر الإسلام هذا الحق على أوسع نطاق ، بل جعله فريضة واجبة على كل إنسان، لأن الفكر الحر السليم ، البعيد عن التعصب والزيف والخداع ، لابد أن يقود الإنسان إلى آفاق رحبة واسعة ، سواء في عالم المادة أو عالم الروح .

ولذلك فإن حرية الفكر التى تدعمها الشريعة الإسلامية : هى الحرية القائمة على الوعى والتدبر والبصيرة ، بما يقود المجتمع إلي ما فيه خيره ورفاهيته ، أما حرية الانحلال والإباحية التي تنخر فى عظام الأمة ، وتعتبر معاول هدم لأركانها ، فيجادلهما الإسلام بالتى هى أحسن ، ليرد النفوس الشاردة ، إلى مجال الحق والفكر الصائب ، فيما لا ينهك القوى العقلية هباء .

ونري رسول الله ﷺ المعلم الأكبر للبشرية يعالج التطرف الفكرى فى حكمة وأناة وروية، بعيدًا عن التعصب الممقوت، أو الإرهاب المرفوض، ملقنًا القادة على مدي العصور والأجيال، كيف يكون الحوار الهادف، الذى يخرج المنحرف من الظلمات إلى النور، وكيف يستنقذون العقول المتطرفة من ضلالها، ويردونها إلى جادة الحق وصلاح المجتمع:

- روي الإمام أحمد بسنده عن أبي أمامة : أن فتى شابًا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى بالزنا . فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه . فقال : « ادنه » فدنا منه قريبًا فقال : « اجلس » فجلس . فقال : « أتحبه لأمك ؟ » قال : لا والله ، جعلنى الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ». قال: أفتحبه لابنتك؟» قال: لا

(١) تاريخ الطبرى ، ج٦ ، ص٥٦٧ ، ٥٦٨ .

والله يا رسول الله ، جعلنى الله فداك ، قال : « ولا الناس يحبونه لبناتهم ». قال : «أفتحبه لأختك ؟ » قال : لا والله ، جعلنى الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لأخواتهم » . قال : أفتحبه لعمتك ؟ » قال : لا والله جعلنى الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لعماتهم » . قال : أفتحبه لخالتك ؟ » قال : لا والله جعلنى الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لخالاتهم » . قال : فوضع يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه » قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلي شيء .

إنه الأسلوب الأمثل فى مواجهة التطرف الفكرى ، فالرسول ﷺ يدع الشاب ينطق فى حضرته بطلب مثل هذا ، يعتبر من الكبائر فى شريعة الإسلام ، ولم يزجره عن ذلك أو يعنفه أو يعتقله ، بل ناقشه بمنطق الحجة والبرهان ، ووجه فكره إلى منابع النور الحقيقة التي يرتضيها المجتمع ، وتحقق الترابط والتضامن بين أفراده . فأيقن الشاب أن حريته تنتهي عند حدود حرية الآخرين ، وليست حرية الانحلال التي تعيث فى الأرض فسادًا تنتهك الحرمات وتخدش الحياء وتنشر الفتن والأهواء .

ومن هذ المنطلق ، ويقينًا بشريعة الإسلام ، وانتهاجًا لسنة النبى الحبيب ، كان موقف « عمر ابن عبد العزيز » تجاه صفوف المعارضة والثورة ضد الأمويين ، فكان شعاره الذى رفعه هو المجالدة بالتى هى أحسن ، للوصول إلي الحق والعدل ، وتحقيق الأمن والسلام فى أمة الإسلام ومن أبرز مواقفه فى ذلك :

موقفه مع الخوارج :

فهم قد استنوا سنة الثورة المستمرة ضد الدولة ، منذ حادثة التحكيم بين علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان فى « صفين » واستمرت ثورتهم ، بل وازدادت عنفًا بعد استئثار الأمويين بالسلطة ، واشتداد المظالم التي شهدها المجتمع ، على أيدى خلفائهم وولاتهم. فما كانت تخمد لهم ثورة إلا لتندلع أخرى ، ولا ينهزم لهم جيش حتي يجيشوا آخر بديلاً [1] .

وفي خلافة « عمر بن عبد العزيز » ثار الخوارج بإقليم الجزيرة شمالي العراق ـ بقيادة شوذب (بسطام) من بني يشكر، وكانوا فى البداية ثمانين فارسًا ، أغلبهم من قبيلة ربيعة، ولأول مرة فى تاريخ الدولة الأموية، يقرر «عمر بن عبد العزيز» أن يستبدل الصراع الذى ينهك الأمة ،بالحوار الهادىء والمنطق السديد ،ولم يكن ذلك عن ضعف عمر

(١) عمر بن عبد العزيز (ضمير الأمة وخامس الراشدين . د.محمد عمارة، ص٥٠ دار الشروق).

بل عن قوة يقينه بالإسلام ، الذى يأمر بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويدعم حرية الفكر والرأى فى إطار العرف والشرع .. ولهذا كتب الخليفة « عمر بن عبد العزيز » إلى شوذب (بسطام) يقول : « إنه بلغنى أنك خرجت (ثرت) غضبا لله ولنبيه ، ولست أولى بذلك منى ، فهلم أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا ، دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان فى يدك ،نظرنا فى أمرنا » .

إنها عظمة المؤمن الواثق بربه وبشريعته الغراء ، فهو يعرض المناظرة ويتعهد مسبقًا بأنه إذا ظهر أن الحق مع الخوارج ، فإنه سيعيد النظر فى شرعيته وشرعية دولته وسلطته ، ولقد استجاب شوذب لدعوة عمر ، وقال له : « لقد أنصفت » وبعث إليه بوفد من مقاتلة الخوارج ، دخلوا عاصمة الدولة بسلاحهم ، ثم أناب الوفد للمناظرة رجلين .

وهكذا آثر الحوار بدلاً من الحرب ، ليجدد سنة المصطفى الحبيب ، وليعلن للعالم أجمع تقرير الإسلام لحرية الفكر ، وتوجيهه الوجهة الصائبة ، فكم من الناس أرادوا الحق فأخطئوه ، واحتاجوا إلى العقول الناضجة والقلوب المؤمنة لتصحيح مسارهم ، وكم من الناس أصبحوا أسارى أفكارهم، التي انحرفت عن الحق، فصاروا كالقدر المكتوم الذي يهدد بخاره بالانفجار فى لحظة احتكاك خاطئة، قد تودى بالأمة بأسرها إلى الهلاك.

وكاد أن يفلح « عمر بن عبد العزيز » فى تحقيق الأمن العام للدولة ، باتفاق كل فصائل المعارضة على كلمة سواء ، لولا أن أمراء بنى أمية عاجلوه ، فأنهوا حياته وأنهوا معها مسعاه لتحقيق الاستقرار فى الأمة الإسلامية ، لأن هذا يتناقض مع أهوائهم وأطماعهم .. وأولوا الألباب الذين يحكمون الأمة بالحكمة والموعظة الحسنة ،ويحققون الاستقرار السياسى عن طريق الحوار الهادف المثمر ، قلة قلما يجود بها الدهر ، لأنهم أصحاب عبقرية فذة وإيمان راسخ ، واتباع رشيد للرسول الحبيب ، الذى أرسى دعائم الفكر السياسى الإسلامى وهو يحيى أمة من العدم ، فانطلقت بمبادئه العظيمة من عدل وشورى ومساواة وحرية ، توقظ الشعوب من غفلتها ، وتذيقها معنى الحياة الكريمة ، فدخل الناس فى دين الله أفواجًا ، وانحنى التاريخ إجلالاً ، وهو يسجل صفحات المجد والفخار ، لمن رفع راية الإصلاح ، اتباعًا للمنهج النبوى ومنهم « عمر بن عبد العزيز ».

* * *

« رابعا : تحقيق السلام العام فى الدولة

رأى عمر بن عبد العزيز بفطنته وحنكته السياسية ، أن استقرار السلام هو وحده الذى سيمكنه من الإصلاح الذى يرجوه ، ولا يصح أن يتبادر إلي الذهن ، أن ما حققه ذلك الرجل العظيم من إصلاح ، كان عفو الخاطر أومصادفة ساقتها إليه الأقدار ، بل هو نتيجة تخطيط علي درجة عالية من التقدم ، قام به رجل نشأ فى بلاط الحكم ، منذ تفتحت عيناه علي الحياة ، سواء أكان فى موقع الحكم ، أو فى موقع الاستطلاع عن قرب، أو موضع المشورة حيث استعان به أهله لثقتهم فيه ، نتيجة نبوغه ، ورأيه السديد وعقيدته التى لا تلين .

وصاحب تخطيط هذا ، قوة عزيمة فى التنفيذ ، ويقين فى الحق ، لا تهوله الصعوبات والتحديات التى يواجهها ، علاوة على منهج عظيم متكامل الأركان والبناء ، يلتزم به ويمده بخبرات واسعة فى تحقيق التقدم المنشود لأمة الإسلام .

ـ فعمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة ، كانت الصراعات السياسية والفكرية تمزق نسيج الدولة ، وتقطع روابط المجتمع ، وكانت سجون الدولة ، فضلا عن مقابرها ، تستقبل وفود الذين جرمتهم الدولة سياسيًا وفكريًا : فخلفاء بنى أمية كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصبية والقبلية والإقليمية ، فيختص أحدهم بعطفه القيسية ويختص آخر اليمانية ، ويميز أحدهم أهل الشام ، ويميز آخر أهل العراق .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة إلى القبائل وزعمائها ، فظهر من ينادى بسيادة أهل الحضر ، وفى مواجهتهم ظهر من ينادى بسيادة أهل البادية .

كذلك كان الخلفاء الأمويون ، قد جنحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب ـ أولئك الذين عُرفوا باسم « الموالى » ففرضوا عليهم الجزية ظلمًا ، وحرموهم الحقوق التى يكفلها لهم الإسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم ، حملت لواء الإسلام عاليًا فى كل مجال .

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة ، من شيعة وخوارج ومعتزلة ، منهم من يحمل السلاح فى وجه الدولة ، وفي وجه خصومه فى الرأي ، ومنهم من لا يحمل السلاح ، لكنه يحمل الكلمة المسمومة ، ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحجاج .

ـ ورث الخليفة الثائر المجتمع علي هذا التمزق والتشتت، فاستطاع بعدله وحكمته السياسية التى استمدها من هدي رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار، أن يحقق الأمن والسلام للأمة:

ـ فبالنسبة للخوارج : لجأ معهم إلى الحوار ، حول ما بينهم وبين السلطان من قضايا وخلاف . وجرى الحوار بينهما رائعًا ، تتجلي خلاله موهبة ابن عبد العزيز فى رؤية

الحقيقة وتوجيه المنطق ، وامتلاك الأفئدة والعقول . فألقت تلك الفرقة المتمردة سلاحها بعدما تبينت أنها فى عصر رجل جديد ، يرفع راية الحق والعدل عالية .

ـ وعندما قامت فرقة أخرى من الخوارج هم « حرورية الموصل » يسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم ، كتب إليه حاكم الموصل يستأذنه فى قمعهم وإسكاتهم ، عرف أمير المؤمنين أن الكبت يولد الانفجار فكتب إلى واليه يقول :

«إذا رأوا أن يسيحوا فى البلاد، فى غير أذى لأهل الذمة، وفى غير أذى للأمة، فليذهبوا حيث شاءوا..وإن نالوا أحد من المسلمين أو من أهل الذمة بسوء ،فحاكمهم إلى الله».

ـ وأما الموالى فقد وضع عنهم إصرهم ، وصحح وضعهم ، واستطاع بسياسة العدل والمساواة ،أن يتنظم مواطنى الأمة كلها ، فى عقد اجتماعى واحد لا ينفرط بسهولة .

ـ لقد استطاع تحقيق السلام العام ، عندما ألغى مبدأ التجريم ، بسبب الخلاف فى الرأى والأهداف . فلم تعد الدولة تعاقب على الرأى ، ولا على النشاط السياسى ، على حين اشتد عقابها ، لمن عدا أصحاب الرأى والسياسة من المجرمين [(١)] .

وهذ يتفق مع أحدث النظم الديمقراطية ، التى تتعدد فيها الأحزاب ، وتمارس نشاطها بحرية ولها صحفها الخاصة للتعبير عن آرائها .

ـ أتاح السلام العام ، الذي أعلنه عمر بن عبد العزيز وإدخاله بني هاشم فيه ، أتاح ذلك لفرعهم العباسى بدء التحرك السياسى ، بعد أن كان الخوف قد أقعدهم عن التحرك في عهد بنى أمية ، كما اندمج فى جهاز الدولة مختلف فصائل المعارضة والإصلاح والثوار: المعتزلة (أهل العدل والتوحيد) ـ الخوارج ـ الهاشميون .

ـ احترم حقوق الأقليات ، لتحقيق السلام بين أبناء الوطن الواحد :فأوصى الولاة بأهل الذمة ، وأصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التى شرعها الإسلام ، لقاء حمايتهم وتوفير الأمن لهم . فرفع عنهم العنت من وطأة الضرائب الظالمة .

ـ حقق الرضا التام للمسيحيين ، عن الجزء من الكنيسة الذى اغتصبه الوليد بن عبد الملك ليقيم عليه امتداد المسجد الأموى المشيد ، وكاد يهدم جزء من المسجد لتعويضهم ، لولا اتفاق العلماء مع زعماء الكنيسة فى دمشق اتفاقًا يرضونه ، وذهاب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله‌عليه ثم يقره ويرضاه .

إن السلام الداخلى فى الأمة يتحقق عندما تخمد الثورات والانتفاضات ،وهذا لا يتأتى

---

(١) د. محمد عمارة . ص٤٠ عن فلهوزن (تاريخ الدولة العربية ص ٢٩٩ ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .

إلا إذا شعر المواطنون بالعدل والمساواة والحرية، وأنهم أصحاب كلمة في حكم بلادهم عن طريق الشورى (نظم الحكم الديمقراطية بالمفهوم العصرى) وهذا ما حققه عمر بن عبد العزيز لأمته ، فلا عجب بعد ذلك أن يتحقق السلام الداخلى ، كأسمى غاية تشرئب إليها أعناق الشعوب في كل مكان وكل زمان .

أما عن **السلام الخارجى** : فقد حقق عمر بن عبد العزيز السلام القائم على المنعة والعزة : فبدأ منذ توليه الخلافة بإصدار أمره للجيش الذى أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ـ ثم رأيناه يفتدى جميع الأسرى على كثرتهم ويردهم إلى ديارهم ووطنهم .

ـ ثم نراه يضع حدًا لكل الأعمال العسكرية التى كانت تقوم بها الدولة ، ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزًا منيعًا بما تم له من فتوح ، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال ، إلا دفاعًا عن حدود الدولة إذا هوجمت ، وعن سلامة الأمة إذا تعرضت للأخطار . إنه الحياد الإيجابى والتعايش السلمي في أقوى صوره ، الذى لم تستطع أى دولة أن تحققه فى عصرنا هذا بهذه الصورة المتكاملة ، رغم تردد الشعارات وانعقاد المؤتمرات.

ـ واستعاض عن زحف الجيوش بكتبه التى أرسلها إلى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم أكثرهم بما كان قد ترامى إليهم من أنباء عدله وورعه وعظمته وتقاه ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب (1) .

كذلك كتب إلي البربر فى أفريقيا يدعوهم إلى الإسلام ، فدخلوا فيه أفواجًا ، وعندئذ وضع عنهم الجزية ، وكانوا يدفعون أبناءهم بدلاً من المال . .وكتب إلى ملوك ما وراء النهر فأسلم أكثرهم ورفعوا راية الإسلام ، ولم يطلب من هؤلاء الذين أسلموا خراجًا ، على حين كان الفتح والغزو فى عصر الأمويين لا يثمر سوى الخراج ، حتى من الذين دخلوا فى الدين الجديد .

لقد آمن عمر بن عبد العزيز أن كسب المؤمنين بالدين الجديد ، سبيله الدعوة إلى سبيل الله بالتى هى أحسن :بالقدوة الطيبة ، وتحقيق العدل والحرية والمساواة والشورى ، وليس بالفتح والجزية والخراج .

---

(١) تاريخ الدولة العربية ، ص٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٢) تاريخ الدولة العربية ، ص٢٨٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ، ص٥٥٨ ـ ٥٦٠ .

ومن هنا جاءت خطوته غير المبسبوقة ، عندما أوقف فور توليه الخلافة ، الفتوحات التى استهدفت الغنى والغنيمة ، فأصدر أمره إلى الجيش الغازى بقيادة عبد الرحمن بن نعيم لبلاد ما وراء النهر ، بالرجوع من تلك البلاد ، وجاء فى كتابه إليه : « اللهم إنى قد قضيت الذى على ، فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذى قد فتح الله عليهم »[1] .

وكذلك بعث بأمر مماثل إلى مسلمة بن عبد الملك وهو بأرض الروم يأمره بالرجوع منها بمن معه من المسلمين ، بل وبعث لهذاالجيش بالخيل والطعام ، كى يعينه على الرجوع إلى بلاد الإسلام[2] . إنه بلا شك قد حقق السلام العام للأمة الإسلامية ، السلام القائم على الحق والعدل والشورى والمساواة والحرية ، السلام الذى يستمد دعائمه من دعائم الفكر السياسى الإسلامى .

وبذلك نكون قد وصلنا إلي خاتمة النقاط التى حددناها سلفًا ، للتكلم عما قام به عمر ابن عبد العزيز لتحقيق الإصلاح السياسى ، أما ما قام به هذا الخليفة الراشد فعلاً فهو جهد جبار خلاق ، تعجز أقلامنا المتواضعة عن توفيته حقه . فقد أمده الله باليقين والعزيمة والجهد ، وهو قام بدوره ، وجاهد فى الله حق جهاده فجازاه الله خيرًا عن أمة الإسلام جمعاء .

وننتقل إلى وجه آخر من وجوه الإصلاح التى نتناولها فى بحثنا هذا وهو الإصلاح الاقتصادى وهذ الفصل بين أنواع الإصلاح ، هو من أجل الدراسة فقط ، أما الواقع الفعلى فإن قطاعات الدولة تتفاعل وتتشابك مع بعضها ، بحيث يؤدى تقدم أى منها إلى تحقيق التقدم فى بقية القطاعات ، وتخلف أى منها يؤدى إلى تخلف الدولة فى شتى الميادين . ولذلك قال علماء التنمية : إن التقدم حركة تراكمية لأعلى ، والتخلف حركة تراكمية لأسفل .

إنها حقًا لمعجزة خالدة تلك التى حققتها يا بن عبد العزيز ، حيث حققت ذلك الإصلاح العظيم فى تلك الفترة الزمنية الوجيزة ، فلنتابع خطواتك بانبهار لتكون درسًا للأجيال .

* * *

(١) تاريخ الطبرى ، ج٦ ، ص٥٥٨ ـ ٥٦٠ .
(٢) تاريخ الطبرى ج٦ ، ص٥٥٣ .

﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ . صدق الله العظيم .

الجزء الثانى

دوره فى الإصلاح الاقتصادى

لقد حقق عمر بن عبد العزيز الإصلاح الاقتصادى بكل مفاهيم العصر الحديث ، فهو قد حقق التوازن المنشود بين قوى العرض وقوي الطلب ، وحقق فائضًا فى ميزانية الدولة، بحيث زادت الإيرادات عن المصروفات ، فوجهها من جديد لصالح الأمة ، لتحقيق مزيد من الإشباعات لحاجات الناس الذين يعيشون عند حد الكفاية ، وحقق عدالة فى توزيع الثروات بين أفراد الشعب ، وشجع الاستثمار بكافة صوره ، وأقام نظامًا ضرائبيًا يحقق التوازن الاقتصادى ، وباختصار : فهو قد حقق الرفاهية الاقتصادية بمفهوم إسلامى ، لا تستطيع كل النظم الاقتصادية أن ترتقى إليه :يقول روجيه جارودى وهو كاتب فرنسى مشهور فى كتابه « وعود الإسلام » [1] : إن مفهوم الإسلام للاقتصاد يناقض المفهوم السائد فى الغرب : حيث الاقتصاد فى الغرب لا يعنى سوى الانتاج والاستهلاك كهدفين لذاتهما ، إنتاج واستهلاك أكثر فأكثر ، وأسرع ما يكون لأى شيء، تافهًا كان أو نافعًا دون أدنى رعاية للغايات الإنسانية ، بينما لا يهدف الاقتصاد فى ظل النظام الإسلامى إلي النمو لذاته ولكن إلى التوازن .

وبالتالى فهو يرفض الخضوع الأعمى للآلة لأنه يحمل غاية فى ذاته ، باعتباره تطبيقًا لأهداف عقائدية وإنسانية سامية ، كما أن الاقتصاد فى ظل الإسلام يرفض الحياد تجاه قوى الاقتصاد القومى ، فالسوق التى هي إحدى دعائم الاقتصاد ، تواجه من أجل إرضاء الحاجات الحقيقية ، وتتجاوب مع أسس وقواعد الإسلام ، لتحقيق التوازن فى توزيع الدخل والحيلولة دون الاحتكار. ويتم ذلك عن طريق رقابة صارمة ، ويقوم بهذه الوظيفة المحتسب المكلف بتنظيمها والسهر على الأسعار فيها، وبعبارة موجزة فإن السوق ليست غاية وإنما هى إحدى الوسائط: ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** ﴾ (النور٣٧) .

وتعكس الزكاة صورة من صور التأمين الاجتماعى الذى لم تعرفه أوروبا إلا فى القرن العشرين وبعد صراع مرير ، فى حين أن مثل هذا التنظيم مطبق فى الإسلام منذ أكثر من

---

(١) كتاب الشهر ، عرض وتقديم د/ . على حسن تقى ، ١٠٢ . مجلة الدوحة (ذو الحجة ١٤٠٢).

ثلاثة عشر قرنًا ـ كأحد قواعد العقيدة نفسها ، وهكذا يمكن للشريعة الإسلامية أن تساهم إلى حد عظيم فى دفع عجلة الحضارة العالمية .

هذه شهادة رجل منصف اقتنع بالإسلام عقلاً وقلبًا . وهى فى نفس الوقت بلورة للمنهج الذى اتبعه عمر بن عبد العزيز فى الإصلاح ، مما سنحاول إلقاء نظرة عليه تكون منهاجًا متكاملاً للتنمية الاقتصادية يشمل عدة نقاط تفصيلية .

منهاجه فى الإصلاح الاقتصادى :

يعتبر منهاج عمر بن عبد العزيز فى الإصلاح الاقتصادى منهاجًا فريدًا ، يستحق الدراسة لأنه شمل كافة نواحى الاقتصاد القومى ، بإجراءات جريئة واعية ترتكز على منهاج عميق متقدم : ويمكن تلخيص ذلك المنهاج فى تلك النقاط الرئيسية :

١ـ المواجهة الفعلية للمشكلة الاقتصادية .

٢ـ العدالة الاجتماعية فى توزيع ثروات الأمة .

٣ـ إقامة نظام ضرائبى يحقق التوازن الاقتصادى .

٤ـ صيانة المال العام وترشيد إنفاقه .

٥ـ تشجيع الاستثمار بكافة صوره .

وننتقل بعون الله وتوفيقه إلي دراسةكل نقطةمن تلك النقاط .

١ـ المواجهة الفعلية للمشكلة الاقتصادية :

يعرف الاقتصاديون المشكلة الاقتصادية بأنها :

تلك المشكلة عن عدم كفاية الموارد الاقتصادية للحاجات المتعددة . وهذه المشكلة بشقيها الرئيسين (الموارد ، الحاجات) من الممكن أن تقابل كل تصرف اقتصادى ، سواء على مستوى الفرد أو المؤسسة أو الدولة ، نتيجة تعدد حاجات الإنسان وقلة الموارد التى يملكها[1] فكيف تصرف عمر بن عبد العزيز تجاه شقى المشكلة ؟.

١ـ بالنسبة للموارد :

كانت الدولة غنية بمواردها فى عصر الدولة الأموية ،ولكن ثرواتها ينهبها من لا يستحقون،حيث كانت حكرًا على الأمراء والأشراف وذوي الجاه والسلطان، وبالتالى كانت هناك مشكلة اقتصادية على مستوى الشعب ككل، حيث يعانى من انخفاض الدخل وزيادة الضرائب الظالمة فقام الخليفة الثائر بعدة تغييرات جذرية حققت زيادة فى ميزانية الدولة

(١) د. رفعت المحجوب : الاقتصاد السياسى ، ص٦١ ، دار النهضة العربية ١٩٦٦م.

(بيت المال)استطاع بعدها تحقيق الاحتياجات الأساسية لمعيشة المواطنين ، بل وانتقل بعد ذلك إلي تحقيق نوع من الرفاهية الذى يتلاءم مع حدود الشريعة الإسلامية .

من تلك التغييرات :

- الأرض الخراجية التي امتلكها الأشراف العرب والتى كانت تدفع الضريبة .. العشر فقط جعلها عمر تدفع « العشر » و« الخراج » وهو الضريبة الأساسية على الأرض ، بعد أن كان فى تناقص مستمر ، بسبب تحول الأرض الخراجية إلى ملكية هؤلاء الأشراف .

- الحقوق التى حصلت عليها الجماهير بعدل عمر ، لابد وأنها قد أطلقت طاقاتها الإنتاجية ، فأدى هذا إلى زيادة الناتج القومى وبالتالى الدخل القومى .

- إلغاء الدخول المزدوجة لعمال الدولة (العطاء + المرتب) قد أحدث وفرًا فى بيت المال .

- إلغاء كل مظاهر الاحتفالات بالخليفة الجديد ، ومظاهر الثراء والبذخ التى تنفق عليه وضمها لبيت المال ، يعتبر زيادة فى موارد الدولة .

- الثروات غير المحدودة التى سبق وانتزعت من بيت المال فحازها الأمراء والسادة والأشراف (اقطاعات - أموال - تحف ونفائس - جوارى ..) أمر عمر بن عبد العزيز بردها جميعًا إلى بيت مال المسلمين ، مما حقق انتعاشًا فى ميزانية الدولة .

- المناطق والمرافق التى كانت حكرًا للدولة (حمى) والتى كانت الاستفادة بها وقفًا على قلة من الأمراء والخاصة ، قد أصبحت عامة لأبناء الأمة - وكان من بينها مراع وجزائر[1] وهذا يعتبر زيادة فى موارد الدولة نتيجة زيادة الزكاة والضرائب التى تصل إلى بيت المال .

- كانت الأراضى المفتوحة فى عهد أسلافه ، قد أصبحت دولة بين الأغنياء منهم امتلكوها وتوارثوها واقتنوا بثمراتهاالأموال وبنوا القصور واشتروا الإماء ، وبصفة خاصة الجوارى الروميات المتكدسة بهن أسواق الرقيق بعد الفتوحات ، من أجل ذلك عرف العصر الغنى الفاحش إلى جوار الفقر المدقع . وعندما تولى عمر الحكم ، انتزع الأراضى المفتوحة من أيدى بنى أمية ، وجعلها للذين يفلحونها ويزرعونها ، وفرض عليهم خراجها فأثرى الفلاحون الفقراء بهذه الأراضى ، وشعروا بالعدل وأغنوا الدولة بما يدفعون من ضرائب.

وقد نفذ بذلك عمر بن عبد العزيز سياسة عمر بن الخطاب فى أراضى البلاد المفتوحة بناء على إجماع الصحابة فى عهده .

---

(١) طبقات ابن سعد ج(٥) ص(٢٧٧)

وكتب إلى ولاته فى هذا الشأن : « نرى أن ترد المزارع لما جعلت له ، فإنما جعلت لأرزاق المسلمين عامة فإن أمر العامة هو أعظم للنفع وأعظم للبركة » .

ـ وحد المكيال والميزان لإقامة التجارة على أسس سليمة ، وتحقيق الرواج فيها كمصدر من مصادر الثروة الاقتصادية . فكتب إلي ولاته جميعًا : « إن المكيال والميزان نرى فيهما أمورًا علم من يأتيها أنها ظلم . فنرى أن تمام مكيال الأرض وميزانها أن يكون واحدًا فى جميع الأرض كلها » .

ـ أعاد توزيع ثروات الأمة بما يحقق العدالة الاجتماعية فاتخذ قراره الحاسم فور تولى الخلافة ، بإلغاء كافة مخصصات الأمراء ، ومخصصات حرسهم وخدمهم ، التى بلغت حوالى ثلث ميزانية الدولة ، وقرر نزع الإقطاعيات الزراعية منهم جميعًا وردها إلى بيت المال ، وبدأ بنفسه فتخلى عن جميع أملاكه وأمواله حتى أرض « فدك » فى خيبر وكانت خير ممتلكاته وأثمنها ، ولم يكن أحد أقطعه إياها ، بل ورثها عن أبيه ، لكنه سأل نفسه ومن أين جاء بها أبوه ؟ لقد أفاءها الله على رسوله ﷺ يوم خيبر ، فخصها لأبناء السبيل، وظلت كذلك حتى ملك الأمر معاوية ، فوهبها لمروان ، ومن مروان وصلت إلي ابنه عبد العزيز والد عمر . ومن هنا رفض عمر أن يأخذ حقًا من حقوق الملايين وأقواتها ، سلبت منها بغير حق وبغير سلطان ، فتنازل عنها وضمها إلى ملكية الدولة.

ـ تنازل عن مخصصاته كأمير للمؤمنين ، واكتفى من دنياه كلها بقطعة أرض صغيرة ، كان قد اشتراها بحر ماله ، ولم تكن تغل أكثر من مائتى دينار فى العام ، وهو الذى كان دخله السنوى قبل تولى الخلافة أربعين ألف دينار ، هى حصيلته من مخصصاته كأمير أموى ، ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه .

ـ وهكذا اتجه إلي زيادة موارد الدولة بطرق تقوم على العدل والحق ، ووضع الأمور في نصابها ، ورد الحقوق إلى أصحابها . وزاد عليها أنه قدم كل ثروته النقدية إلي خزانة الدولة ، بل لقد جمع ثيابه وحلله الرافهة ، وحلل زوجته وأولاده ، ثم جمع مراكبه وعطوره ومتاعه ثم دفع ثمنها الذي بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار إلى بيت المال .

ـ من أعظم السبل التي استطاع بها الحفاظ على ميزانية الأمة وإثرائها هو الرقابة على الإنفاق العام وترشيد إنفاقه ، ووضع كل درهم فى مكانه وضرورته ، وتحريم كل تبذير وتجريم كل سرف . وهذا هو خير مورد وأبقى مصدر .

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص٢٧٧ ، ٢٨١ .

هكذا واجه الخليفة عمر بن عبد العزيز الشق الأول من شقى المشكلة الاقتصادية وهو جانب الموارد فكيف واجه الشق الثانى ؟

ب ـ بالنسبة للاحتياجات :

لقد حقق أسلوبًا مثاليًا لإشباع الاحتياجات يتناسب مع وسطية الإسلام : فلا هو استعمل أسلوب الكبت في قهر الحاجات مثل المجتمعات الشيوعية ، ولا أطلق لها العنان بما يرهق كاهل الأمة مثل المجتمعات الرأسمالية .

فحدد مسئولية الدولة تجاه مواطنيها بما كتبه لولاته :

« لابد لكل مسلم من : مسكن يأوى إليه ـ وخادم يكفيه مهنته ـ وفرس يجاهد عليه عدوه ـ وأثاث فى بيته . فوفروا ذلك كله . ومن كان غارمًا فاقضوا عنه دينه » .

والتعبير بكلمة مسلم هنا : لا تعنى قصر هذه الحقوق على المسلمين وحدهم ، إنما استعمل هذا الوصف لغلبته . لأن تلك الحقوق كانت من حق المواطنين جميعًا (مسلمين وأهل الكتاب) .

وأمر الخليفة ولاته أن يبدأوا بتغطية حاجات أقطارهم ، وما فاض وبقى يُرسل إلى الخزانة العامة ، ومن قصر دخل إقليمه عن تغطية حاجات أهله ، أمده الخليفة بما يغطى عجزه ، إنه يطبق مبدأ التكافل الاجتماعى لإشباع حاجات الأمة ، ومواجهة المشكلة الاقتصادية بأسلوب فريد من نوعه ، لأنه يحمل المثالية والمبادىء السامية تجاه مشاكل المجتمع، فقال لولاته :

« استوعب الخراج وأحرزه فى غير ظلم . فإن يك كافيًا للناس فحسنًا . وإلا فاكتب إلى حتى أبعث إليك من المال ، ما توفر به للناس أعطياتهم » .

ـ ولم يكتف رشد الخليفة عند ذلك فى إشباع حاجات الناس كوسيلة لمواجهة المشكلة الاقتصادية ، بل امتدت رحمة الإسلام فيه إلى المسافرين وأبناء السبيل ، فأنشأ لهم فى طول البلاد وعرضها دور الضيافة يأوون إليها ويشعرون معها بأسمى معانى الترابط والإخاء والانتماء لوطنهم .

ـ ومضى يرفع مستوى الأجور الضعيفة ، وكفل كل حاجات العلماء والفقهاء ، ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم ،دون أن ينتظروا من أيدى الناس أجرًا ، فيضعف اجتهادهم العلمى أو تنحرف فتواهم تحت وطأة الاحتياج .

ـ وسخا علي ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم وحتى لا تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام .

ـ وعلى طول الدولة وعرضها ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ، ويقضى له أموره على حساب الدولة ، ولكل مريض أو مريضة بخادم على حساب الدولة .

ـ وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم فى جميع أقطار الأمة العريضة المترامية الأطراف .

ـ وكما فعل جده العظيم ـ عمر بن الخطاب ـ أمر أن يفرض لكل مولود راتبه وعطاءه بمجرد ولادته وليس بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الأمهات فطام الرضعاء ، فيتعثر نموهم وتضمحل قواهم .

ـ ومن أجل ألا يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع أحد بين عطائين ، وحرم على جميع العاملين والموظفين الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب .

فهل هناك حل للمشكلة الاقتصادية ، منذ بدأت الدراسات الاقتصادية الحديثة ، يعطى نتائج مثل تلك التى حققها عمر بن عبد العزيز فى خلافته الوجيزة ؟!

إنه حل تعجز العقول عن إدراكه ، وتنتهى الآمال دون بلوغه ، لقد وصل الأمر بالأمة الإسلامية إلى حد اختفاء الفقر والفقراء ، كما يجمع المؤرخون علي ذلك . ونرى مدى الرفاهية والفائض الذى حققته ميزانية الدولة ، فى تلك الرسائل المتبادلة بين عمر بن عبدالعزيز وواليه علي العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن : حيث يطلب منه أن يخرج للناس أعطياتهم ، فيجيبه الوالى : إنى قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقى فى بيت المال » . فيكتب إليه عمر طالبًا منه أن ينهض بسداد ديون المدينين الذين استدانوا فى غير سند ولا إسراف سداد ديونهم من بيت المال . فينهض الوالى بذلك ، ويكتب لعمر ثانية أن بيت المال مازال عامرًا . فيطلب إليه الخليفة أن يزوج من ليس له مال ظاهر من بيت المال ، فينفذ الوالي ويكتب لعمر مرة أخرى : إنى قد زوجت كل من وجدت ، وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال » . فيكتب إليه الخليفة : انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرض فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه ، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين»[1]

. . . وهكذا نجد أن عظمة مواجهة عمر بن عبد العزيز للمشكلة الاقتصادية إبان فترة حكمه تنبع من عظمة المنهج الذى أيقن به وتغلغل فى كيانه ، فطبقه واقعاً حيًا ينبض بقول الله عزّ وجل : **﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾** (الأعراف٩٦) .

* * *

(١) الأموال لأبى عبيد ، ص٣٥٧ ، ٣٥٨ .

٢ـ تطبيق شامل لحد الكفاية :

فرض الإسلام على الدولة أن تضمن لكل مواطن فيها ، مسلمًا أو ذميًا ، حق العيش الكريم ، وهو ما عبر عنه رجال الفقه القدامى بـ (حد الكفاية) وما يترجمه قول ابن تيمية فى (السياسة الشرعية) : والذي على ولى الأمر أن يأخذ المال من حله ، ويضعه فى حقه ، لا يمنعه من مستحقه .

من أين استمد ابن تيمية تلك القاعدة الفقهية ؟

استمدها من الدستور الإسلامى ، الذى وضعه لنا الله جلّ شأنه فى قرآنه الكريم ، ونفذه رسوله الحبيب فى سنته الشريفة ، وهو يقيم دعائم أمة الإسلام :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله ولرسوله ولذى القربى واليتامى وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ (الحشر٧) . ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ (البقرة ٢١٩) .

ومعنى العفو : أى ما زاد عن الحاجة . بمعنى ما زاد عن حد الكفاية .

وتلك بعض أقوال الرسول ﷺ فى توضيح مفهوم حد الكفاية :

ـ روى البخارى أن الرسول ﷺ قال : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

ـ وروى البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ : « إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم فى المدينة ، حملوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد ، فهم منى وأنا منهم .

ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل . . . » . (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى).

ومعنى فضل ماء : أي ما زاد عن حاجته وحاجة أهله .

ـ عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا ابن آدم ، إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى » . (رواه مسلم والترمذى).

الكفاف : ما كف عن الحاجة إلي الناس مع القناعة (لا يزيد على قدر الحاجة) .

الفضل : ما زاد على قدر الحاجة .

من هذا المنهاج القدسى الشريف ، انطلق عمر بن عبد العزيز ، يدك حصون الظلم،

ويرسى دعائم العدل ، وينذر المترفين ، ويسلبهم أطماعهم ، بعدما تمادوا فى غيهم ، ويطمئن المحرومين ، ويرد إليهم حقوقهم التى طال عليهم حرمانهم منها ، ويقوم بعزة السلطان بوضع الأمور فى نصابها ، وتحقيق العدالة الاجتماعية فى توزيع الثروات ، وعدم تكدسها فى أيدى فئة محدودة ، تتداولها فتزيد غنى وبطرًا ورياءً ، وتظل فئة عريضة من الشعب تعيش تحت وطأة الحرمان والفقر ، فتختل موازين العدل ، ومعها موازين العمل والانتاج والدخل القومى والرفاهية الاقتصادية بمعناها الشامل للأمة جمعاء . مما ينفرط معه العقد الاجتماعى للأمة ومن هنا جاء التحذير الإلهى بألا يكون المال دولة بين أغنياء الأمة فقط .

إن تطبيق عمر بن عبد العزيز لمفهوم حد الكفاية ، كما جاء فى الشرع الإسلامى ، ليعتبر إنجاز رائع في عصر كعصره ، زادت فيه تيارات الترف والشره ، وحرص الأغنياء وذوو الجاه والسلطان على تحقيق شهواتهم وأطماعهم الدنيوية . وهذا بحق ما جعل المؤرخين يبوئونه تلك المكانة السامية ،ويطلقون عليه ما يناسب جهاده العقائدى ، بأنه خامس الخلفاء الراشدين حيث كان على مستوى مسئولية الكلمة وشرف الرسالة والأمانة.

من أقواله فى حد الكفاية :

ـ وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم ، حتى نستوى نحن بهم ، وأكون أنا أولهم ، مالى وللدنيا أم مالها ومالى ؟ (١) . .

وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ولحمتى الذين يلوننى، حتى يستوى عيشنا وعيشكم، أيها الناس، من وصل إلينا منكم بحاجته ، لم نأله خيرًا، ومن عجز، فوالله لوددت أنه وآل عمر فى العجز سواء(١).

ـ وكتب إلى عامله على سمرقند : سليمان بن أبى السرى :

أن اعمل خانات فى بلادك ، فمن مر بك من المسلمين فاقروهم يومًا وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به غلة فأقروه يومين وليلتين ، فإ كان منقطعًا به فقووه بما يصل به إلى الحياة (٣) .

ـ كتب إليه أحد عماله أن ما يجتمع في بيت المال من الخراج يزيد عن مصارفه ، فأمره عمر : اقسم الفضل (الزيادة) في أهل الحاجة من المسلمين والمعاهدين ، وقوّ به أهل الذمة .

---

(١) العقد الفريد ، ج٤ ، ص٩٣ .

(٢) العقد الفريد ، ج٤ ، ص٩٥ ، تاريخ الطبرى ج٦ ، ص٥٧٠ ، والأغانى ج٩ ، ص٣٣٨٦

(٣) تاريخ الطبرى ، ج٦ ، ص٥٦٧ .

ـ فرد إلي بيت مال المسلمين ، كل الإقطاعات والضياع والحوانيت المغتصبة ، التي كان قد حصل عليها بنو أمية بدون وجه حق ، واكتفى بتسويتهم مع سائر الرعية فى العطاء .

ـ ثم رأى أنه اشتد علي عشيرته ، وأن بعضهم بدأ يشكو الفقر ، فأمر لهم بعشرة آلاف درهم ، فلم ترضهم ، ولم تقع منهم موقعًا حسنا ، فلما علم بذلك قال : « أجل والله لقد قسمتها فيهم ، وقد ندمت عليها أن أكون منعتهم إياها ، فكانت تكفى أربعة آلاف بيت من بيوت المسلمين » .

ـ بدأ الخليفة عمر بن عبد العزيز بتطبيق حد الكفاية ، علي نفسه وأسرته كما رأينا فحرم نفسه من أملاكه وثروته ، ثم حرم نفسه حقها الطبيعى من راتبه كرئيس دولة ، وحرّم على منصبه كل مظاهر البذخ التى تنفق من بيت مال المسلمين ، وفيهم الأرامل واليتامى والمحرومين ، فكان يجلس للناس على الأرض ، إشعارًا لهم بأن سلطة الشعب فوق السلطة التنفيذية ، أو على الأقل على قدم المساواة ، فى نطاق دعائم السياسة الإسلامية الرشيدة التي تقوم علي العدل والشورى والمساواة والحرية :

ـ انتقل إلى بقية أهله وعشيرته ، فأخذ منهم فضل أموالهم التي حصلوا عليها بدون وجه حق ، وردها إلى خزانة الدولة ، لتحقيق حد الكفاية بين أبناء الأمة الواحدة ، لأن التفاوت الرهيب فى مستوى الدخل الفردى ، يخلق آثارًا مدمرة على كيان الدولة .

ـ لقد التزم عمر بن عبد العزيز منهج حد الكفاية ، التزامًا يكاد يكون مطلقًا مع نفسه ومع أهله ومع ولاته ومع ذوى قرباه وأصدقائه ، والناس أجمعين ، كما رأينا فى مواجهته للمشكلة الاقتصادية على مستوي الأمة بأسرها ، وهذا ما حقق الرخاء لأمته فى عصره بكل المفاهيم التى تتناولها الدراسات الحديثة .

ونقل هذا الحديث ، الذى دار بينه وبين أحد المقربين إليه ـ عنبسة بن سعيد ـ عندما ذهب إيه يومًا يسأله حاجة لنفسه ، لنعرف مفهوم حد الكفاية ، بأبعادهالشاملة عند الخليفة الراشد ، الذى يعى بصدق وقع خطواته فى الحياة ، وأمانة المسئولية التى تقع على عاتقه وغزارة المنهج الذى يستقى منه مشاربه :

قال الخليفة : « يا عنبسة : إن يكن مالك الذى عندك حلالاً ، فهو كافيك ، وإن يكن حرامًا فلا تضيفن إليه حرامًا جديدًا ، أخبرني يا عنبسة :

أمحتاج أنت ؟ .. لا

أفعليك دين ؟ .. لا

إذن فكيف تطمع فى أن أعمد إلى مال الله فأعطيكه فى غيرحاجة وأدع فقراء المسلمين؟

لو كنت غارمًا لأديت غرمك ، أو محتاجًا لأمرت لك بما يصلح شأنك ، فليكن لك فى مالك غناء . واتق الله . وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين .

إن حد الكفاية الذى طبقه عمر بن عبد العزيز، لم يكن وقفًا على الإحسان والبر والصدقة والزكاة، فذلك كله لا يتعدي قاعدة واحدة من قواعد التكافل الاجتماعى، التى قام عليها البناء الشامخ للإسلام، الذي يرفض السلبية ويدعو إلي الإيجابية مع ظروف المجتمع.

فحد الكفاية نظام اجتماعى كامل يحقق العدل في أسمى صوره :

العدل في توزيع الثروات ـ العدل فى المشاركة فى السراء والضراء ـ العدل فى تحمل الكوارث ـ العدل أن يواجه كل الحياة حسب قدرته (المالية والصحية والنفسية) ـ العدل أن يحصل الضعيف والمسكين والأرملة واليتيم ، على حقه فى الحياة كما يعيشها الأقوياء والقادرون ـ العدل أن يتحمل كل مسلم تبعات القضاء والقدر ، حسب السلم الاجتماعى الذى يعيش فيه .

وهذا هو السر الذى يكمن وراء تصرفات الخليفة الراشدة ، فنراه أحيانًا يقتر علي قرابته بالدرجة التى تثير أحقادهم ، ويقف لهم كالجبل الشامخ لا تزعزعه الأهواء ، ويرفض الاستجابة لمساعيهم ووساطتهم لزيادة عطائهم ،وذلك لأنه يعرف أن لهم أموالاً أخرى.

ونراه أحيانًا يغدق على موظفى الدولة ، ومن فى مراكز حساسة ،لأنه يعرف ألا دخل لهم ويخاف فتنتهم أمام إغراء الرشوة وانحرافهم عن الحق ، فتنحرف معهم موازين الأمة بأسرها . فلترهف الدنيا آذانها ولتبتعد عن ضلالها وأهوائها ، لتعرف عظمة الإسلام وقدرته علي تحقيق الحضارة للشعوب ، التى تعرف ربها وتؤمن بسنة رسولها ، وتنتهج خير مبادىء وتعاليم تعجز العقول عن الإتيان بمثلها .

٣ـ العدالة الاجتماعية فى توزيع ثروات الأمة :

تعتبر العدالة الاجتماعية فى توزيع ثروات الأمة ، من المشكلات الأساسية التي تشغل كل المهتمين بالشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وهى مهمة ملقاة على عاتق كل حاكم ، لأن عليها يتوقف نتائج كثيرة فى الأمة : إذ تحدد مستوى الاستهلاك والادخار وبالتالى الإنفاق والإنتاج والاستثمار ، كما تحدد مستوي الإشباع والرفاهية عند مواطنى الدولة ، وتحدد فوارق الطبقات الاجتماعية ، والعوامل النفسية التي تنشأ عن ذلك ، من أثر المحاكاة والتطاحن والشعور بالكبت والإحباط عند الفقراء ، أو الغرور والاستعلاء عند الأغنياء .

ولهذا فإن العدالة الاجتماعية فى توزيع ثروات الأمة ، هى القضية الأولى التى يجب أن تشغل بال كل حاكم ، لأن عليها يتوقف درجة الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى للأمة .

ونظرًا لأن الإسلام دين الحضارة والرقى ، فقد أعطى للدولة وسائل عديدة لتحقيق توزيع للثروات أكثر عدالة ، يضمن التوازن بين قوي المجتمع ، هذه الوسائل تنقسم إلى قسمين رئيسين : [1]

القسم الأول : وسائل ضمنية فى صميم التشريع الإسلامى ، مثل الزكاة والميراث والصدقات والكفارات والأوقاف .

القسم الثانى: وسائل تخضع للقرار السياسى ، وتقدر حسب حاجة المجتمع، ومنها: الضرائب ـ تطبيق نظام الضمان الاجتماعى ـ تحديد الملكية الزراعية والعقارية والتجارية.

فما هو الدور الذى قام به عمر بن عبد العزيز لتحقيق العدالة الاجتماعية فى توزيع ثروات الأمة ؟

بالنسبة للقسم الأول : فقد أصدر قرارًا فيما يخصه ، بصفته حاكم الدولة والمسئول عن جمع الزكاة وإنفاقها فى مصارفها بمايحقق منهج الله فى العدل :

فأمر بوضع قانون يحدد سنة الإسلام فى مصارف الأموال :

فنفذ ابن شهاب صياغته وهى كالتالى :

ـ فسهم للفقراء ، وسهم للمساكين ، وسهم للعاملين عليها ، وسهم للمؤلفة قلوبهم، وسهم في الرقاب ، وسهم للغارمين ، وسهم فى سبيل الله ، وسهم لابن السبيل.

فسهم الفقراء : نصفه لمن غزا منهم في سبيل الله ، أول غزوة ، حين يفرض لهم من الإمداد ، وأول عطاء يأخذونه ، ثم تقطع عنهم بعد ذلك الصدقة ، ويكون سهمهم فى عظم الفيء ، والنصف الباقى للفقراء ممن لا يغزون ، من الزمن والمكث [2] الذين يأخذون العطاء إن شاء الله .

وسهم المساكين : نصفه لكل مسكين به عاهة لا يستطيع حيلة ولا تقلبًا فى الأرض ، والنصف الباقى للمساكين الذين يسألون ويستطعمون ، ومن في السجون من أهل الإسلام ليس له أحد ، إن شاء الله .

---

(١) بحوث مختارة من المؤتمر العالمى للاقتصاد الإسلامي (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) جامعة الملك عبدالعزيز ص٦٣ .

(٢) ذوى العاهات المزمنةالتى أقعدتهم عن السعى .

وسهم العاملين عليها : ينظر، فمن سعى على الصدقات بأمانة وعفاف، أعطى على قدر ما ولى وجمع من الصدقة، وأعطى عماله الذين سعوا معه على قدر ولايتهم وجمعهم، ولعل ذلك أن يبلغ قريبًا من ربع هذا السهم، ويبقى هذا السهم بعد الذى يعطى عماله، ثلاثة أرباع ،فيرد ما بقى على من يغزو من الإمداد[1] والمشترطة إن شاء الله.

وسهم المؤلفة قلوبهم : لن يفترض له من إمداد الناس أول عطاء يعطونه ، ومن يغزو مشترطًا لا عطاء له ، وهم فقراء ، ومن يحضر المساجد من المساكين الذين لا عطاء لهم، ولا سهم ، ولا يسألون الناس ، إن شاء الله .

وسهم الرقاب : نصفان ، نصف لكل مكاتب [2] ويدعى الإسلام ، وهم على أصناف شتى : فلفقائهم فى الإسلام فضيلة ، ولمن سواهم منهم منزلة أخرى ، على قدر ما أدى كل رجل منهم ، وما بقى عليه ، إن شاء الله ، والنصف الباقى تشترى به رقاب ممن قد صلى وصام وقدم في الإسلام ، من ذكر وأنثى ، فيعتقون ، إن شاء الله .

وسهم الغارمين : على ثلاثة أصناف : منهم صنف لمن يصاب فى سبيل الله فى ماله وظهره [3] ورقيقه ، وعليه دين لا يجد ما يقتضى ولا ما يستنفق [4] إلا بدين . ومنه صنفان لمن يمكث ولا يغزو ، وهو غارم ، وقد أصابه فقر ، وعليه دين لم يكن شىء منه فى معصية الله ولا يتهم فى دينه ، إن شاء الله .

وسهم فى سبيل الله : فمنه لمن فرض له ربح هذا السهم ، ومنه للمشترط الفقير ربعه ، ومنه لمن تصيبه الحاجة فى ثغره ، وهو غاز فى سبيل الله ، إن شاء الله .

ومنهم ابن السبيل : يقسم ذلك لكل طريق على قدر من يسلكها ويمر بها من الناس ، لكل رجل من ابن السبيل ليس له مأوى ، ولا أهل يأوى إيهم ، فيطعم حتى يجد منزلاً أو يقضي حاجته ، ويجعل فى منازل معلومة ، على أيدى أمناء لا يمر بهم ابن سبيل له حاجة ، إلا آووه وأطعموه وعلفوا دابته ، وحتى ينفذ ما بأيديهم ، إن شاء الله ، الخ الخ[5].

ولا شك أن هذا التقسيم نفسه وتوصيف بنوده ،يعتبر نوعًا مثاليًا من العدالة فى توزيع

---

(١) أى مدد الجيش المحارب .

(٢) المكاتب : الرقيق يتعاقد مع سيده على أن يعتقه مقابل مال يدفعه له لقاء تحريره .

(٣) الظهر : دابة الحمل والركوب ووسيلة الانتقال .

(٤) أى ينفق .

(٥) الأموال لابن سلام ص٧٦٤ ، ٧٦٥ (وقد ذكر ابن سلام أن تشريع عمر بن عبد العزيز قد اشتمل على ما هو أكثر) .

بند من بنود خزانة الدولة ألا وهو زكاة المال ، والذى دفع عمر بن عبد العزيز إلى إصدار هذا الأمر ، هو حرصه الشديد على مراعاة العدل فى توزيع ثروات الأمة ، أما باقى وسائل القسم الأول ، وهى الميراث والصدقات والكفارات فهى تخضع لظروف أصحابها ، وتعتبر مسئولية شخصية فى أعناقهم أمام الله .

- بالنسبة للقسم الثانى : وهي الوسائل التى تخضع للقرار السياسى وتقدر حسب حالة المجتمع :

١ـ الضرائب :

سوى نرى موقفه منها فى النقطة القادمة من نقاط الإصلاح الاقتصادى .

٢ـ تطبيق نظام الضمان الاجتماعى :

طالعنا الكثير منه فيما سبق فى كيفية مواجهته للمشكلة الاقتصادية (فى شق إشباع الحاجات) وفى كيفية تطبيقه الشامل لحد الكفاية .

٣ـ بالنسبة للملكيات الزراعية والعقارية والتجارية :

عندما تولى عمر الخلافة ، وجد أن كثيرًا من تلك الملكيات ، قد كانت فى صدر الإسلام ملكًا لبيت مال المسلمين ، أى للأمة جمعاء ، وكانت تمثل الثروة الأساسية للمجتمع ، فاستولى عليها بنو أمية ، وآلت إلى الباقين بالميراث ، وبعض المتاجر كانت ملكًا لأشخاص فانتزعت منهم بدون وجه حق ، وسيطر عليها ذوى الجاه والسلطان .

ومن هنا كانت الخطوة الجريئة للخليفة الثائر فى الإصلاح: هى إعادة تلك الملكيات لبيت مال المسلمين ، مما يحقق رواجًا فى ميزانية الدولة يكفل للدولة توزيعًا عادلاً لثروات الأمة ، وتحقيق الإصلاح المطلوب فى جميع الميادين ، والمظالم الفردية عادت لأصحابها ، تحقيقًا للعدالة الاجتماعية ،ورفع راية الحق عالية خفاقة ،تطمئن معها القلوب ،ويندفع الجميع إلى الابتكار والعمل الخلاق ،مطمئنين على عآئد عملهم ،مما يحقق الرفاهية الاقتصادية للأمة ،وهذا ماحدث فعلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ،حيث اختفي الفقر والفقراء.

ولقد بدأ الخليفة الراشد تجربته الرائدة فى الإصلاح بنفسه ،قدوة وسلوكًا لغيره ،حتى تثمر التجربة نتائجها المرجوة ،فالناس على دين ملوكهم ،ولا خير فيمن نصح غيره ونسى نفسه:

- كان لديه متاع كثير ، تنازل عنه ورده إلى بيت المال ، وكان من بينه (فص خاتم) جاء من أرض المغرب ، وأعطاه له الخليفة الوليد بن عبد الملك [١] .

- وكان يمتلك عبيدًا وثيابًا وعطورًات ومقتنيات ،تزيد عن حاجة الثائر الزاهد ،الذى

(١) طبقات ابن سعد) ج٥ ، ص٢٤٦ .

أصبحه ، فجمعها وأمر بها ، فبيعت بثلاثة وعشرين ألف دينار ، أودعها بيت المال لتنفق على أبناء السبيل (١) .

ـ كانت لديه جوار للخدمة والاستمتاع . فلما ولى الخلافة ، سمع خاصته فى منزلته بكاءًا عاليًا ، فلما استفسروا عن مصدر البكاء وسببه ، علموا أن عمر قد خير جواريه قائلاً لهن : قد نزل أمر قد شغلنا عنكن ، فمن أحب أن أعتقه أعتقته ، ومن أمسكته لم يكن منى إليه شيء (٢) .

فهو قد حقق حد الكفاية بالمفهوم الإسلامى ، وطبق شعار من سبقه من الخلفاء الراشدين : « **ما زاد عن قوتنا فالمسلمون أولى به ولابد من رده إلى بيت المال** » .

ـ وكانت مزرعة « فدك » بالقرب من المدينة قد آلت إليه ، وهى التى كانت زمن البعثة فى مخصصات الرسول ﷺ ، ثم أصبحت علي عهد الراشدين لبيت المال ، فلما كان عهد معاوية أقطعها لمروان بن الحكم ، ثم وهبها مروان لولديه :عبد العزيز وعبد الملك، ثم صارت لعمر والوليد وسليمان ، حتي استخلصها عمر لنفسه ، فلما ولى عمر الخلافة، وأيقظت الأمانة والخوف من الله نور بصيرته ، وشعر بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقه ، وشرع فى تحقيق عدالة التوزيع لثروة الأمة ، أعاد « فدك » إلى ما كانت عليه زمن الرسول ﷺ وقال فى ذلك لمولاه (مزاحم) : « **إن أهلي أقطعونى ما لم يكن لى أن آخذه ولا لهم أن يعطونيه** » (٣) .

وقد اكتفى عمر من المال والمتاع بما يسد حاجته الضرورية محققًا حد الكفاية كما جاءت به الشريعة الإسلامية ، ويضرب المثل للأمة ، كى تقتدى به فى الإصلاح ، الذى استهدف تحقيقه علي طريق الهدى والرشاد .

ـ ولقد أصبح ثمن حلته عشرة دراهم ، بعد أن كانت بألف دينار ، ومع ذلك كان إذا لبسها استلانها (٣) .

ـ وكانت له بغلة أرسلها إلى الرعى بعد أن عجز عن علقها ثم باعها .

ـ وقنع بالكفاف وامتنع عن أخذ شيء من بيت مال المسلمين ، ولما قيل له : لو أخذت من بيت المال ما كان يأخذعمر بن الخطاب ، قال : **إن عمر لم يكن له مال ، وأنا مالى يغنينى** (٥) .

---

(١) طبقات ابن سعد ج٥ ، ص٢٥٤ . (٢) طبقات ابن سعد ج٥ ، ص٢٩٣

(٣) فتوح البلدان ص٢٩ ، والكامل فى التاريخ ج٥ ص٢٤ .

(٤) مروج الذهب ـ ج٢ ـ ص١٤٦ .

(٥) ابن عبد ربه (العقد الفريد)ج٣ ـ ص١٦٩ ـ طبعة القاهرة ـ سنة ١٩٢٨ .

ونهى عماله أن يقدموا إليه - كما كان الحال مع من سبقه الهدايا في أعياد النيروز والمهرجان [1] .

- ولقد اشتهى التفاح يومًا ، فعجز عن شرائه ، فلما أهدى إليه رفضه ، فسأله : فرات ابن مسلم : يا أمير المؤمنين اشتهيت التفاح فلم يجدوه لك ، فأهدى إليك فرددته؟ أجابهم : لا حاجة لى فيه ، ولما سألوه ، ألم يكن رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية ؟ أجابهم : إنها لأولئك هدية ، وهى للعمال بعدهم رشوة [2] .

إنه بلا شك يضرب المثل الأسمى فى عدالة توزيع ثروات الأمة، حيث يريد أن يغرس فى موظفى الدولة القناعة بدخلوهم ،وعدم اللجوء للرشوة ،لتحقيق ترف زائل وشهوات تنحرف بهم عن جادة الحق ، فالرشوة طريق خطر يجرف الأمة إلى هاوية الانحلال .

وانتقل عمر من نفسه وخاصة أهله إلى أمراء بنى أمية ، فانتزع ما بأيديهم من «القطائع» والأموال والثروات والمقتنيات ، بل ومنع عنهم ما كان الخلفاء السابقون قد أغدقوه عليهم من الرواتب والمخصصات ، تحقيقًا لعدالة التوزيع فى الأمة الإسلامية ، وقال لمن أبلغه شكواهم ومعارضتهم : « ما منعتهم حقًا أو شيئًا كان لهم ، ولا أخذت منهم حقًا أو شيئًا كان لهم » [3] .

ولقد كانت معارضة هؤلاء الأمراء لذلك الإصلاح شديدة ، فلقد وحدوا صفوفهم واجتمعوا على معارضة الخليفة ، ثم أرسلوا إليه عمته فاطمة بنت مروان لتفاوضه ، ولكن عمر بن عبد العزيز لم تخيفه التهديدات ، ولم ترعبه التحديات ، بعد ما أنار الله بصيرته وعرف طريق الحق ، الذى فيه صلاحه وصلاح الأمة بأسرها فقال :

« يا عمة إن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ رحمة - لم يبعثه عذابًا - إلى الناس كافة ، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه ، وترك لهم نهرًا شربهم فيه سواء ، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم ولي عمر فعمل علي عمل صاحبه ، فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهرًا ، ثم ولى معاوية فاشتق منه الأنهار ، ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان ، حتى أفضى الأمر إلىّ ، وقد يبس النهر الأعظم ،ولن يروى أصحاب النهر ،حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه [4] .

فهو يحدد هنا ،فى وضوح لا لبس فيه ،وجلاء لا غموض به:أن الثروة فى المجتمع هى النهر الأعظم، وأن الإسلام قد قرر شركة الناس واشتراكهم ،فشربهم فيه سواء،

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج٥ ، ص٢٧٦ .
(٢) طبقات ابن سعد ج٥ ، ص٢٧٨.
(٣) طبقات ابن سعد ج٥ ص ٢٧٥ .
(٤) الأغانى - ج٩ - ص٣٣٧٥ ، ٣٣٧٦ .

وأن الانحراف عن هذا المبدأ الإسلامى ، قد بدأ فى عهد عثمان بن عفان ، أول خلفاء بنى أمية ، عندما اشتق من النهر الأعظم والعام نهرًا خاصًا ، ثم زاد الانحراف عندما ولى معاوية بن أبى سفيان ، فاشتق من النهر الأعظم والعام أنهارًا خاصة ، ثم توالت الانحرافات ، يشتق أصحابها الأنهار الخاصة من النهر العام ، حتى أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز ، فوجد أن النهر الأعظم والعام قد جف ويبس .

وبالتالى فعليه تصحيح الأوضاع، وتحقيق العدالة فى توزيع ثروات الأمة، وهذا لن يتأتى إلا بإعادة المياه جميعًا (الثروة كلها) إلى النهر الأعظم والعام للأمة جمعاء، يستقى منه الأفراد بدون تفرقة حسب احتياجاتهم ،بعدما طال حرمانهم وطال معه عناؤهم .

- ومن العدالة في توزيع الثروات : أنه أعاد العطاء والحقوق إلى قوى المعارضة ، الذين خالف رأيهم الدولة ، فقطعت عنهم العطاء ، وقاسوا الفقر والمسغبة مثل : المعتزلة وعلى رأسهم الحسن البصرى - عبد الله بن العلاء بن زبير - غيلان الدمشقى . ومثل الهاشميون: حيث أرسل عمر بن عبد العزيز إلي عامله على المدينة ، أن يقسم فى أولاد على بن أبى طالب من فاطمة ،عشرة آلاف دينار قائلاً: «إنهم طالما تخطتهم حقوقهم»(١) .

كما رد إليهم ممتلكاتهم التى انتزعت من أيديهم ، وأمر بأن يعود سهم الرسول وسهم ذوى القربى ، فيقسم فيهم من جديد (٢) .

وعندما كان يشكره المظلومون علي عدله ونصره إياهم ، كان يرد بتواضع المجاهدين فى الحق: « إنما هى أموالكم أردها عليكم » .

- إن عدالة توزيع الثروات الأمة ، لا تكمن فقط فى تلك الصفحات القليلة التى كتبناها ، إنما تكمن فى كل لحظة من لحظات الحكم ، التى وهب فيها عمر بن عبد العزيز نفسه لله ، وتكمن فى كل قرارعادل أصدره يعيد فيه الحق المغتصب إلى نصابه الحقيقى ، وتكمن فى نصرة كل مظلوم وإعانة كل ضعيف ، وتلبية نداء كل عاجز محتاج، وتكمن في تعاون أجهزة الدولة جميعها التي ذكرها الخليفة ، والتى تعينه على إدارة أركان الأمة وتحقيق مطالبها ، والفصل فى القضايا بين الناس ، فالوالي ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أمير المؤمنين .

كما تكمن فى سرعة الفصل فى المظالم ، وسرعة إنجاز الجهاز الإدارى ، والرقابة الواعية على أجهزة الحكم .

كل هذا فى مجموعه يشكل العدل فى صوره المتكاملة ، ويضمن حصول مواطنى الأمة

(١) مروج الذهب - ج١ - ص١٤٤ .   (٢) الخراج لأبى يوسف - ص٢١ .

على حقهم الطبيعى فى ثروات بلدهم ، بطريقة عادلة تحقق لهم الأمن والرخاء .

٤ـ إقامة نظام ضرائبى يحقق التوازن الاقتصادى :

إن دراسة النظام الضريبى منفصلاً عن النظام الاقتصادى، لهو أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه الدارس : ففرض الضرائب يجب أن يتم بناء على دراسة واعية للنظام الاقتصادى ككل، لأن عبء الضريبة إذا فاق حدودًا معينة، فإنه يشكل عرقلة خطيرة للاستثمار ، وبالتالى النمو الاقتصادى ، كما أنه يشكل اختلالاً فى الترابط الاجتماعى ، إذا لم يتم بطريقة عادلة، تشمل قطاعات المواطنين ، على اختلاف مراكزهم أو عقائدهم أو انتماءاتهم العرقية . .

ولذلك فإن عمر بن عبد العزيز عندما تولى الحكم ، أولى موضوع الضرائب اهتمامًا كبيرًا ، ليحقق الإصلاح الاقتصادي ، ومعه يتم الإصلاح السياسى والاجتماعى ، فصلاح تلك النظم ، تعنى صلاح النظام الضريبى وفسادها يعنى فساده .

ففساد الدولة الأموية ، وترفها الزائد عن الحق ، أرهق ميزانية الدولة ، فراحوا يعوضون ذلك بجمع المال من المواطنين ، بوسائل غير مشروعة وضرائب غير عادلة ، فأهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فورًا ، لكن الدولة الأموية تأبى فى ذلك حكم الإسلام ، وتبقى الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مبررة ذلك بأنهم يسلمون فرارًا من الضريبة .

ويجىء الخليفة العادل فيرفض هذا التبرير الزائف ، ويعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الأرض مالاً وذهبًا ، فالإسلام شريعة متكاملة لابد من تطبيق كل مبادئها مجتمعة ، حتى تؤتى ثمارها المرجوة فى إصلاح المجتمعات ، والإخلال بأى منها معناه خلل فى الإصلاح .

ـ ويطلق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه : « **إن الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا**».

ـ ولقد أرسل إليه واليه على العراق « عدى بن أرطأة » يقول : إن الناس قد دخلوا فى الإسلام أفواجًا ، حتى خشيت أن قل الخراج ، فيجيبه الخليفة المقسط العظيم :

« **والله لوددت أن الناس كلهم يسلمون ، حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا** » .

ـ كذلك راح يتتبع كل الضرائب ، التي كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعًا . . بل وحتى الضرائب المشروعة مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها

فى الناس ، عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح أو تتعرض لبوار ، ها هو يكتب لواليه علي اليمن ، عروة بن محمد : « **أما بعد ... فقد كتبت إلى تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج ، ثابتة فى أعناقهم كالجزية ، يؤدونها علي كل مال . إن أخصبوا أو أجدبوا ، إن حيوا أو ماتوا .**

« **فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ، إذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ، واعلم أنك إن لم ترفع إلىّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم** [1] **فقد علم الله أنى سأكون بها مسروراً ، ما دام فى ذلك إبقاء على الحق والعدل** [2] .

وإن الذى يطلع علي رسائل عمر بن عبد العزيز ، إلي عماله علي الأقاليم بخصوص الضرائب ، ليبهره عظمة القوانين الضرائبية التى شرعها ، وكأنه تلقى دراسات اقصادية فى أرقى الجامعات الحديثة وأعرقها ، ولا عجب فى ذلك ، لأنه اتبع شرع الله ، واجتهد فى تطبيقه ، وحرص على تحقيق العدل والإحسان ، كأشد ما يكون الحرص ، وهما الطريق الأمثل لإصلاح الأمة كلها ، فالضرائب فى نظره ليست أداة ترف ورفاهية للحكومة ، وليست أداة انتقام من الشعب وإرهاق كاهله بأعباء ينوء بها ، بل هى فى نظره أداه من أدوات تحقيق العدالة الاجتماعية ، فى توزيع الثروات بين الشعب ، بحيث القادر يعطى للميزانية ما تعطى منه المحتاج والمحروم ، وهى أداة من أدوات الإصلاح الاقتصادى ، بحيث تصحح مسار الناتج القومى وتدعمه ، فلا ضرائب على من أجدبت أرضه ، أو تعرض للإفلاس ، أو أسهم فى مشروع لا يدر عائده سريعًا .

ولنلمح ذلك واقعًا حيًا فى تشريعاته الضريبية ، التى صدرت فى صورة أوامر بالرسائل التى يصدرها إلى ولاته :

ـ من عبد الله عمر ـ أمير المؤمنين ـ إلى عبد الحميد :

سلام الله عليك ، أما بعد :فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء ، وشدة جور فى أحكام الله، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء ، وإن قوام الدين : العدل والإحسان ، فلا يكونن شىء أهم إليك من نفسك ، فإنه لا قليل من الإثم ! ولا تحمل خرابًا علي عامر ولا عامراً على خراب . انظر الخراب فخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ، لا يؤخذ من العامر إلا وظيفة ضريبة الخراج ، فى رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن فى الخراج إلا وزن

---

(١) كتم : نبات يخضب به الشعر ويصنع منه مداد الكتابة .

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٢٨٧ ـ طبقات ابن سعد ـ ج٥ .

سبعة ، ليس فيها تبر ولا إذابة فضة ولا أجور الضرابين ولا هدية النيروز[١] والمهرجان[٢] ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج [٣] ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح ، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض ، فاتبع فى ذلك أمرى ، فإني قد وليتك من ذلك ما ولانى الله ، ولا تعجل دونى بقطع ولا صلب حتى تراجعنى فيه ، وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة يحج به والسلام [٤] .

فهو هنا يأمر عامله على الكوفة ، بإسقاط أكثر من عشرة أصناف من الضرائب الجائرة التى استحدثها عمال السوء ، فجعلوها سنة خبيثة استنوها وأرهقوا بها كاهل الناس - وكتب عمر إلى عامله بالبصرة :عدى بن أرطاة يأمره بأن يسقط عن الناس الضرائب والمغارم التى استحدثها ولاة السوء الذين سبقوه ، مثل ضريبة المائدة والنوبة والمكس ، وقال عن هذه الضريبة الأخيرة : لعمرى ما هو بالمكس ولكنه البخس الذى قال الله عنه : **﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾** [٥] (البقرة ٦٠) .

- ولما بلغه أن عمال الخراج بالبصرة يحذرون ويتكهنون ، بمقدار غلة الأرض قبل نضج محصولها ، فيقدرون المحصول بالظن ويبالغون فى التقدير ، وهو ما يسمى بالتقدير الجزافى وأيضًا يفرضون للثمار أسعارًا منخفضة وتافهة ، قبل أن تقرر حركة الأسواق أسعار هذه الثمار ، ثم يجنون الفرق بين تقديرهم وبين الأسعار الحقيقية ، كتب إلي عدى بن أرطاة ينهاه عن ذلك ، ويطلبه إليه إبطال هذه التجاوزات ، فقال : بلغنى أن عمالك يخرصون الثمار على أهلها ، ثم يقولونها بسعردون سعر الناس الذى يتابعونه به، فيأخذونها قرفًا على قيمتهم التى قوموهما .. ومعنى يخرصون : يتكهنون - ومعنى قرفا : قشرا والمواد القيمة التافهة .

ونهاه كذلك عن تسليط الجباةعلى الناس يأخذون منهم العشر فى الطرقات [٦] .

- ولما كتب إليه عدى بن أرطاة ،يحدثه أن من الناس من لا يستجيب لأداء ما عليه من الخراج ،إلا إذا مسه شىء من العذاب ،عجب عمر، بل وغضب ،وكتب إليه محذرًا ،أن

---

(١) النيروز : عيد أول السنة ، وهو عند الفرس : يوم نزول الشمس أو الحمل وفى التقويم المصرى القبطى : أول شهر توت .

(٢) المهرجان : عيد فارس يحل عن نزول الشمس أول الميزان .

(٣) الفيوج : مفردها فيج وهو رسول السلطان الذى يحمل كتبه .

(٤) طبقات ابن سعد - ج٥ - ص٢٧١ ، ٢٧٦ ، وتاريخ الطبرى - ج٦ ص٥٦٩ ، الخراج لأبى يوسف - ص٨٦ .

(٥) طبقات ابن سعد ج٥ ص٢٨٣ .

(٦) فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات) ص٢٨ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.

يعذب إنسانًا فى سبيل الخراج ، قال : « أما بعد . . فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر ، كأنى جنة (واقية) لك من عذاب الله ! . . إذا أتاك كتابي هذا، فمن أعطاك ما قبله عفوا ، وإلا فأحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بجناياتهم ، أحب إلى من أن ألقاه بعذابهم [1] .

ـ وكتب عمر إلى ولاة الخراج ، الذين أرادوا كى يزيد الخراج ، أن يفرضوا الجزية على الذين دخلوا فى الإسلام ، كما كانت العادة التى استقرت قبل خلافته ، كتب إليهم مقبحًا رأيهم وناهيًا عن هذا الظلم الشنيع الذى يريدون .

فعندما بعث إليه والى خراج مصر (حيان بن شريح) بأن الإسلام قد أضر بالجزية وأن أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام فنقصت الجزية ، حتى لقد استدان لإتمام عطاء أهل الديوان ، وكان يلمح برغبته فى فرض الجزية على من أسلم .

كتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتك وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطًا ، فضع الجزية عمن أسلم .. فإن الله إنما بعث محمدًا ﷺ هاديًا ولم يبعثه جابيًا [2] .

كانت نظرة الولاة قصيرة الأمد ، أما تخطيط أمير المؤمنين فكان طويل الأمد ، إنه لا يسعد بزيادة خزانة الدولة فى الأمد القصير ، ثم يؤدى الظلم ، وتراخى عناصر الانتاج وانفراط لعقد الاجتماعى ، إلى ضعف الناتج القومى ، وبالتالى نقص موارد الدولة ، فى المدى الطويل .

إن العدل وتحقيق الترابط بين أفراد الأمة الواحدة ، مهما اختلفت انتماءاتهم القومية وأصولهم العرقية ، لأمر لا يستهان به على الإطلاق ، فى أى إصلاح يهدف الحاكم إلى تحقيقه ، لأن قطاعات المجتمع كلها متشابهة ، وكل عمليات التنمية لابد أن يسبقها التنمية الاجتماعية ، لأن البشر هم الدافع الأساسى فى عملية الإنتاج .

ـ وبقدر دور الضرائب غير المباشر في تحقيق التوازن الاقتصادى ، فإن الخليفة الراشد لم يغفل دوره المباشر لنفس الغرض .

ـ فكتب إلى عامله على إمارة (عمان) حول تشريع ضريبة صيد الأسماك ، وكيف تكون لتنمية الثروة السمكية :

---

(١) الخراج لأبى يوسف ـ ص١١٩ .

(٢) طبقات ابن سعد ج٥ ص٢٨٣ .

«ألا تأخذ من السمك شيئًا حتى يبلغ مائتى درهم ، فإذا بلغ مائتى درهم فخذ منه الزكاة»[1].

- وكتب إلي عامله على إمارة (واسط) حول توقيت جباية زكاة التجارة ، بما يحقق الانطلاق في نمو التجارة دون معوقات :

« ألا تأخذوا من أرباح التجار شيئًا حتى يحول عليها الحول » [2] .

- ووضع حد الإعفاء الضريبى بما يتناسب مع ظروف العصر ، ونفقات المعيشة ومستلزماتها ، فكتب إلى واليه على أرض الفرات :

« أن دع لأهل الخراج من أهل الفرات ، ما يتختمون به الذهب ، ويلبسون الطيالسة ويركبون البراذين ، وخذ الفضل » [3] .

- وحرص فى إصلاحه أن يقوم على التقوى ، فلا خير فى إصلاح يقوم على فساد . . كتب إلى عدى بن أرطأة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . بلغنى أنك تأخذ من الخمر العشور ، فتبقيه فى بيت مال الله ، فإياك أن تدخل بيت مال الله إلا طيبًا ، والسلام عليكم » [4] .

إن النظام الضريبى الذى اتبعه عمر بن عبد العزيز ، كان نظامًا جديرًا بأن يحقق الرفاهية الاقتصادية ، على مستوى الأمة ككل ، لأنه نظام قائم على العدل والطهر ، قائم على إزالة الأحقاد من النفوس ، فتندفع إلى مجال العمل بإخلاص وتفان ، مطمئنة على مستقبلها وعلى عائد عملها .

والذين يتصورون أن خزانة الدولة قد تأثرت بعدل عمر ، وإلغائه أنواعًاكثيرة من الضرائب الظالمة ، يخطئون فى تصورهم هذا ، لأنه بعد ما أثمرت تلك السياسة نتائجها، فى حياة الشعوب المتعطشة للعدل ، تحقق الرخاء والوفرة المطلوبة ، فإن مصادر التاريخ تثبت أن خراج العراق كان علي عهد عمر بن عبد العزيز ، أعظم منه على عهد الحجاج ، فلقد بلغ فى عهد الحجاج ١١٨,٠٠٠ درهم بينما أصبح علي عهد عمر ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ والمؤرخون يرجعون هذه الزيادة إلى عدل عمر وعمارته [5] .

ورغم ذلك فإن المقارنة بالأرقام فقط ، لا توحى بالفارق الهائل بين العصرين ، لأن الحجاج جمع هذا الخراج ،بالعسف والجور وفساد الإدارة ،كما جمعه من الأرض الخراب، (أى غير العامرة)حيث كان الولاة قبل خلافة عمر ،يفرضون على الأرض الخراب غير المنتجةخراجًا، يجمعونه من الأرض العامرة التى تزرع، وهو مما أبطله عمر بن عبد العزيز

(١) الأموال لابن سلام - ص٤٨٢ .

(٢) الأموال لابن سلام - ص ٥٦٩ .

(٣) العقد الفريد - ج٢ - ص٥٣ .

(٤) طبقات ابن سعد ج٥ - ص٢٨٠ .

لأنه ظلم، ولا توحى أرقام بيت المال حينئذ برفاهية اقتصادية حقيقية، بل تنذر بإحباط المنتجين ،وتداعى انتاجهم بعد ذلك وهذا يظهر الفارق الواضح بين سياسة الظلم،وسياسة العدل ،التى يصحبها رفاهية حقيقية ،بكل مدلولاتها التى توصل إليها الاقتصاد الحديث.

٥ - صيانة المال العام وترشيد إنفاقه :

المال العام : هو المال الذي تملكه الجماعة والأمة ومعنى ذلك أنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمة ، لكل أرملة فيها وكل يتيم ، لكل مسن وطفل ورضيع ، لكل فقير وعاجز مريض .

والأموال العامة بهذه المثابة ، حق الناس جميعًا ، تتمتع بحرمة بالغة وقداسة وثقى ، ومع ذلك فهى لكثرتها ، وكثرة الأيدى العاملة فيها ، وضعف الرقابة ، تغرى بحملقة الأعين ، وتوقظ شهوات النفوس إلى حب المال ، فتكثر الأيدى الناهبة والمختلسة ، تقع هذه الأموال فريسة الغلول (وهو الاختلاس) مما يضيع علي الضعفاء حقوقهم ، وتعجز الدولة عن القيام بواجبها فى حالات الكوارث ، والضمان الاجتماعى ، لضعف ميزانيتها، وهذا يجر وراءه مجموعة من الآثار ، التى تنخر فى عظام الأمة ، وتسبب مفاسد وانحرافات ت، جر الأمة إلى هاوية التخلف والانحلال .

ولهذا فقدحذر الرسول ﷺ الولاة والقائمين على أمور الناس من اختلاس الأموال العامة فقال :

ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : كان على ثقل رسول الله ﷺ رجل يقال له كركرة فمات ، فقال رسول الله ﷺ هو فى النار فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها . (رواه البخارى) .

ـ وعن ثوبان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « من جاء يوم القيامة بريئًا من ثلاث دخل الجنة : الكبر والغلول والدين » . (رواه النسائى وابن حبان) .

ـ وعن حبيب بن مسلمة رضى الله عنه قال : سمعت أبا ذر يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن لم تغل أمتى لم يقم لهم عدو أبدًا » .

قال أبو ذر لحبيب بن مسلمة : هل يثبت لكم العدو حلب شاة ؟

قال : نعم وثلاث شياه غزر ، قال أبو ذر : غللتم ورب الكعبة .

(رواه الطبرانى فى الأوسط).

ـ ومن أجل حرمة الأموال العامة هذه ، ومن أجل دورها في الحفاظ على كيان الدولة

وقوتها أمام العدو ، يرى عمر بن عبد العزيز أنه مسئول عن إعلان هذه الحرمة ، وصيانة هذا الحق ، فيقول بكلمته الفاصلة : « إنما أنا حجيج المسلمين فى مالهم » .

ـ وطابق قوله فعله ، كما رأينا فيما سبق ، من اختيار الولاة الأمناء ، ومراقبتهم الشعبية حيث رصد مكافآت تشجيعية ، لكل من يبلغ عن مظلمة ، أويرشد إلي وضع الحق فى نصابه.

ـ وحرص على وضع كل درهم فى مكانه وضرورته ، وتحريم كل تبذير ، وتجريم كل سرف . ومن أمثلة ذلك :

ـ يطلب منه أحد ولاته ، الإذن بمزيد من الشموع ، التى كانت دار الإمارة تضاء بها ، ويضاء بها للأمير ، وهو فى طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر ، فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عهدتك يا ابن أم حزم ، قبل أن تكون واليًا ، تخرج من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ، ولعمرى لأنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فتائك أهلك ما يغنيك » .

ـ ويكتب إليه والى آخر ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة أيضًا : **« إذا جاءك كتابى هذا فأرق القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الواحدة ، فإنه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول أضر ببيت مالهم » .**

إنها قمة الوعي والمسئولية من الحاكم ، أن يحرص كل هذا الحرص على المال العام ، مهما تكن ضآلة مقداره ، فأى إسراف إذا استهين بأمره ، يعود على ميزانية الدولة بنتائج ضارة ، فى المدى البعيد ، لأنه ينشر الاستهتار بالمال العام ، وهو ما يتنافى مع أساسيات العقيدة الإسلامية التى تملأ ضمير الخليفة العادل ، وتشكل سلوكه تجاه الأموال العامة وحرمتها وقداستها ، يتساوى فى ذلك عدل درهم من زيت مصباح ، أو ملء حجرة فضة وذهبًا ، لأنه يذكر نفسه دائمًا والمسئولين جميعًا بالآية الكريمة : **﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾** .

(آل عمران ١٦١) .

ـ ولذلك وضع نفسه قدوة لأمته بما يتناسب مع أمانة المسئولية التى كلفه الله بها :

فهو قد حال بين نفقاته الخاصة ،وبين ما هو ملك لبيت المال وعامة المسلمين ، حتى لقد أمر ألا يسخن ماؤه الذى يتوضأ به ويغتسل ، فى مطبخ العامة [١] . فقد أمر عمر بإقامة مطابخ ضخمة فى كل بلد ، لتقدم طعام لأبناء السبيل والفقراء والمساكين والعابرين

---

(١) طبقات ابن سعد ـ ج٥ ـ ص٢٨٤ .

والمسافرين فلما طلب الوضوء يومًا ، وجد غلامه قد رجع بالماء ساخنًا سريعًا ، فلما سأل وعلم أنه سخنه فى أحد الحمامات العامة ، أمر أن يرد للحمام ثمن تسخين الماء له : حطبًا بدرهم من ماله الخاص .

وأرسل غلامه يومًا ليشوي قطعة من اللحم ، فعاد بها مسرعًا مشوية ، فعجب عمر وسأله: أين شويتها بهذه السرعة ؟ قال : فى مطبخ المسلمين يا أمير المؤمنين . قال : «**يا غلام كلها فإنى لم أرزقها** » .

ـ وكان يمتنع عن الجلوس على الوسائد العامة المملوكة للدولة ، إذا كان فى مجلس خاص به. وكذلك شموع الدولة وسروجها، لا يوقدها فى مجالسه الخاصة .. وأخباره فى الحفاظ على أموال المسلمين العامة، والاقتصاد فى النفقات تصل إلى درجة الأساطير[١] .

وحرم كذلك على أهله إدخال طعام العامة فى طعامهن الخاص ، حيث اشتاقت مرة زوجته الحامل إلى قليل من اللبن ، فجاءتها خادمتها بغرفة لبن من دار طعام الفقراء خوف سقوط جنينها إن هى حرمت منه ، وفقًا للاعتقاء السائد ، فأبصرها عمر بن عبد العزيز ، فاشتد غضبه ومنع زوجته من تناوله ، وقال لها غاضبًا معنفًا : « **إن لم يمسك ما فى بطنك إلا طعام المساكين والفقراء ، فلا أمسكه الله** » [٢] .

وكذلك فعل عمر بأولاده : فلقد أصابهم زهده وتقشفه ، وعندما حضرته الوفاة ، طلب إليه « مسلم بن عبدالملك » أن يكتب لأولاده ما يبدلهم بالفقر غنى ، فتعجب عمر من قول مسلمة وقال : **يا مسلمة منعتهم إياه فى حياتى وأشقى به بعد وفاتى ؟** » [٣] ورفض العودة عن الحق ، واستغلال المال العام بعد وفاته لصالح أولاده .

لقد ضرب عمر بن عبد العزيز مثلاً رائعًا فى الحفاظ على المال العام ، وترشيد إنفاقه فمنذ توليه الخلافة ، وهو يرفض مظاهر الأبهة والإسراف ، سواء التى تحيط باحتفالات تلك المناسبة ، أو تستلزم مصاريف الحاكم وإقامته ، أو مخصصاته التي تعارفت عليها الدولة الأموية ، من أموال وطيب وجوارى ومتاع ودواب ، أو قصور أو . . .

لقد رفض كل هذا ورده إلي بيت المال ، لأنه حق للأمة جمعاء ، بل ورد أمواله الخاصة أيضًا ، قائلاً لمولاه مزاحم : « **إن أهلى أقطعونى ما لم يكن لى أن آخذَه ، ولا لهم أن يعطونيه** » . إنها شدة الخوف من أمانة المال العام ، ومسئوليته عنه أمام الله .

---

(١) طبقات ابن سعد ج٥ ص ٢٧٨ .

(٢) طبقات ابن سعد ج٥ ص ٢٩٠ ، ٢٧٩ ، والكامل فى التاريخ - ج٥ ص١١ .

(٣) الأغانى ج٩ ، ص٣٣٨٤ ، ٣٣٨٥ .

حتى الهدايا رفضها ، ولما قيل له : إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية ، قال : **لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة** [1] .

أغدق على عماله العطاء ، ليعفوا ويستغنوا عن الرشوة أو الغلول ، ثم حاسبهم بعد ذلك حسابًا عسيرًا ، على الدرهم من بيت مال المسلمين ، ينفقونه فى غير وجهه .

ومهما كتبنا ، فلن نستطيع أن نوفى عمر بن عبد العزيز حقه ، فى صيانة المال العام، وترشيد إنفاقه ، وإن الرفاهية التي حققها لأمته خلال فترة حكمه ، لهى أكبر شاهد على ذلك . فالإنفاق العام إذا أطلق له العنان ، ولم تحكمه رقابة واعية رشيدة ، فإنه يحتل موقعًا بارزًا فى ميزانية الدولة ، ويستنفذ مواردها ، فتعجز الدولة بعد ذلك ، عن الوفاء بدورها تجاه الضعفاء ، والفقراء والمرضى والمحتاجين ، ولا يجدون من معين ، غير التوجه إلى رب العالمين .

ولذلك فلن نكون مغالين ، إذا قلنا إن الإصلاح الاقتصادي ، الذى حققه الخليفة الراشد بدأ منذ توليه الخلافة ، حيث وضع للمال العام قدسيته وصيانته ، ووجه الأمة إلي أن الخليفة ليس فوق القانون ، وليس له حق فى أموال الدولة ، إلا بما يرضى الله ورسوله ، وأنه مسئول عن الرقابة على الإنفاق العام وترشيده ، فلا احتفالات ولا مظاهر ترف وبذخ للجهاز الإدارى ، طالما أن ميزانية الدولة لا تفى باحتياجات الشعب الأساسية، وهذا بلا شك ما دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز ، أن يرد كل مظاهر العظمة والسلطان التي تحيط بالحاكم إلى بيت مال المسلمين .

٦ـ تشجيع الاستثمار بكافة صوره :

إن الذين يصورون حالة الرفاهية ، التى صاحبت حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز ، على أنها معجزة إلهية ، أو فترة انتعاش نتيجة جهود من سبقوه ، ليغمطون هذا الرجل العظيم حقه من الاحترام والتقدير : فحالة الرفاهية هذه ، جاءت نتيجة فكر ثاقب ، وخبرة واسعة وتخطيط واسع المدى ، وجهد جبار ، ورغبة عميقة فى الإصلاح ، صاحبتها إرادة حديدية يشحذها صدق الإيمان ، واليقين فى تعاليم السماء .

فقد شجع عمر بن عبد العزيز الاستثمار فى كل نواحيه ، لأن عقيدة الإسلام تدعو إلى الاهتمام بعناصر الإنتاج من (عمل ـ قوى طبيعية ـ رأس مال) كوسيلة لشحذها وتوجيهها إلى ما خلقت له ،وهوزيادة الناتج القومى ،لانتشال المجتمع من الفقر والتخلف

---

(١) الأغانى ج٩ ـ ص٣٣٨٤ ، ٣٣٨٥ .

والتحليق به إلى آفاق واسعة من التقدم، فالتخلف حالة لا تتفق مع الشريعة الإسلامية بأية صورة من الصور، فالعمل له قدسيته وأجره، والقوى الطبيعية لابد من استغلالها الاستغلال الأمثل، والمال يحرم اكتنازه ،ولابد من تشغيله فيما يعود بالنفع على المجتمع.

وقد رأينا جانبًا من تشجيع الاستثمار ، ونحن ندرس التشريع الضريبى ، الذى فرضه الخليفة المصلح ، ليحقق الرفاهية الاقتصادية .

وندرس الآن جانبًا آخر ، من تشجيعه للثروة الصناعية ، والحفاظ عليها ، لأنها قوت الشعوب ، ومن لا يملك قوته لا يملك قراره :

كان الوضع قد استقر ، منذ فتحت المجتمعات الزراعية الرئيسية مصر والشام والعراق وفارس - علي عهد عمر بن الخطاب ، على أن تظل أرضها بأيدى أصحابها الأصليين ، مقابل دفعهم عنها ضريبة (الخراج) مع انتقال ملكية الرقبة فى الأرض إلى بيت مال المسلمين ، أى إلى مجموع الأمة بأجيالها كلها الحاضرة والآتية [1] .

وكان مقتضى هذا التنظيم ألا تباع هذه الأرض ، وألا تنقل من ضريبة (الخراج) إلى ضريبة (العشر) المقررة على أرض العرب المسلمين ، وهى أقل من ضريبة (الخراج) ولكن أشراف العرب وساداتهم ، وخاصة فى ظل الدولة الأموية ، أخذوا فى شراء الأرض الخراجية ، وصاروا يدفعون عنها ضريبة (العشر) فقط ، الأمر الذى أضعف إيراد الدولة من ضريبة الخراج ، وأضر بأهله من سكان البلاد الأصليين ، وزاد من ثراء الأشراف والسادة العرب ، والقرشيين منهم على وجه الخصوص ، وزاد الأمر سوءًا ، أن هؤلاء السادة الملاك لم يكونوا يفلحون الأرض بأنفسهم ، وإنما كانوا يمارسون فيه علاقات الإنتاج الإقطاعية ، كملاك كبار .

ولقد امتد إصلاح عمر إلى الميدان الزراعى : فأمر أن تظل الأرض الخراجية بأيدى الفلاحين من أهل البلاد الأصليين ، ومن أسلم من هؤلاء وأراد الانتقال إلي المدن التى نشأت فى هذه البلاد ، لسكنى الجيوش العربية ، وغدت المجتمعات الإسلامية فيه ، فلا يحق له الاحتفاظ بما كان بيده من الأرض ، أو نقلها من (خراجية) إلي (عشرية) بل عليه أن يتركها ، لمن لا يزالون على ارتباطهم واستقرارهم فى قراهم : « **أيما قوم صولحوا على جزية ، فمن أسلم منهم كانت أرضه لبقيتهم** [2] .

---

(١) عمر بن عبد العزيز (ضمير الأمةوخامس الراشدين) د. محمد عمارة - ص١١٤، دار الشروق.

(٢) الأموال لابن سلام ص٢٢٧ .

وبالمفهوم الحديث : أمر عمر بن عبد العزيز ، أن تظل الأرض الخراجية ، بيد من يفلحونها ، ولا شك أن هذا يساعد على زيادة الإنتاجية .

وفى الوقت الذى منع فيه بيع أرض الخراج ، كى تظل ملكا لمجموع الأمة ، وحتى لا تنتقل ملكية الأرض للذين لا يفلحونها ، أحيا المبدأ الإسلامى الذى يمجد العمل ، ويرى فيه المعيار الذى يعطى الأشياء قيمتها . فشجع الناس على إحياء الأرض الموات ، لأن من أحيا أرضاً مواتاً فهى له ، واستنفر الناس إلى إزالة المياه التى تغمر الأرض ، فتحول دون زراعتها ، لأن نزع الماء من الأرض هو بمثابة إحياء لها [1] :

- كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته ، بأحقية الأرض لمن يزيل عنها الماء ، أى يجففها ويستصلحها للزرع فقال : **من غلب الماء على شئ فهو له** .

- ونرى فى كتابه إلى واليه على العراق - عبد الحميد بن عبد الرحمن كيفية اهتمامه بالتخطيط للتنمية الزراعية :

فعندما ماحصل فائض فى بيت المال ، كان يحدد له أوجه إنفاقه ، وفى كل مرة يرد الوالى بأنه نفذ احتياجات الشعب التى حددها له أمير المؤمنين ، وبقى مال فى بيت مال المسلمين ، كتب إليه الخليفة :

« انظر من كانت عليه جزية ، فضعف عن أرضه ، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين » [2] .

إنه يقرر « سلف إنتاجية » لإعانة الفلاحين على استغلال الأرض ، لأن الدولة تخطط لمستقبل هذه الأرض البعيدة .

حقاً لقد وفر الخليفة عمر بن عبد العزيز لأمته المناخ اللازم للاستثمار :

- من توفير الموارد لبيت المال ، وزيادة ميزانية الدولة ، عن طريق رد المظالم ، واسترجاع حقوق الأمة ، وترشيد الإنفاق العام .

- نظام ضرائبى يشجع على الاستثمار ، ولا يعوق مجالاته .

- نظام تكافل اجتماعى ، يكفل المخاطرة فى الاستثمار ، لأنه سيجد الدولة تأخذ بيده عند عثرته ، بالسلف الانتاجية اللازمة .

أماكن استضافة تساعد على التجارة والانتقال ، من بلد لبلد ،مما يزيد الثروة التجارية .

- أسلوب وكفاءة فى التنفيذ من الجهاز الإدارى ،تتمشى مع احتياجات الدولة فى الإصلاح .

---

(١) الأموال لابى عبيد - ص ٤٠١ - ٤٠٢

(٢) الأموال لابى عبيد - ص ٣٥٧ ، ٣٥٨

- متابعة ورقابة على أجهزة الدولة المختلفة ، تضمن سرعة العمل ، وإزالة المعوقات أمام المنتجين والمستثمرين .

- عزل سريع للولاة ، الذين يثبت تقصيرهم أمام أمانة المسئولية ، بما يعرقل مسيرة الإصلاح ، فنراه يكتب إلى أحد الولاة : لقد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما عدلت وإما اعتزلت .

- تطبيق العدالة الآجتماعية فى توزيع الثروات ، فيتحقق لكل مواطن نصيب عادل من الدخل ، يساعده فى دفع عجلة الإنتاج .

- إرساء العدل والمساواة والشورى والحرية : أطلق ملكة الابتكار والانتاج والعمل لدى المواطنين ، لأن الكل آمن على عائد عمله ، وعلى حقه العادل فى الحياة الحرة الكريمة .

إن تشجيع عملية الاستثمار لا تتم بالقول فقط ، بل هو يستلزم مناخ عام يشمل أجهزة الدولة بأسرها ، لأن رأس المال جبان بطبعه ، ويحتاج الأمان لينتقل فى العمليات الانتاجية المختلفة ، كما يحتاج إلى العدل ليضمن العائد الذى يحصل عليه ، ويحتاج إلى الشورى لأنها محصلة الخبرة والآراء المتقدمة المبنية على التجارب ، ويحتاج إلى المساواة لضمان فرص العمل والتوزيع ، ويحتاج إلى حرية التملك ، وحرية البيع والشراء، وحرية تخصيص الموارد ، حتى ينطلق الاستثمار فى أوسع المجالات .

وبكل هذه المقاييس يمكن القول : إن عمر بن عبد العزيز قد شجع الاستثمار ، بأسلوب مباشر وغير مباشر .

وبهذا نكون وصلنا إلى نهاية اجتهادنا ، فى تصوير ما قام به فى الإصلاح الاقتصادى، أما ما قام به فعلا ، فهذا يحتاج إلى مجلدات ضخمة ، تتفق مع ساعات الليل والنهار ، التى كان يسابقها ، لتحقيق الإصلاح المطلوب ، حتى هزل وضعف ، مصداقاً لمن قال :

إذا كانت النفوس كباراً   تعبت فى مرادها الأجسام

* * *

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هُمُ المفلحون ﴾

(صدق الله العظيم)

الجزء الثالث

دوره فى الإصلاح الاجتماعى

إن الفصل بين عمليات الإصلاح ، التى قام بها عمر بن عبد العزيز ، لا تعنى أن كل عملية تمت على حدة ، بل هى من قبيل التخصص ، الذى تتسم به الدراسات الحديثة ، فالدولة كيان واحد ، والإصلاح فى أى ميدان ، يعنى الإصلاح فى بقية الميادين .

وتجربة عمر بن عبد العزيز فى التنمية ، تعتبر من قبيل التنمية الشاملة ، التى تناولت جميع القطاعات فى نفس الوقت ، وهذا ما يعطيها التميز والإعجاز ، ويجعلها تجربة رائدة تستحق الدراسة كما ذكرنا من قبل ، سواء من ناحية الوقت أو الشمول أو النتائج.

والإصلاح الاجتماعى - وإن ذكرناه فى النهاية - فهو من الأهمية بمكان ، فى أى عملية تنمية ، تريد الدولة أن تقوم بها ، لأن الإنسان هو محور الدولة ، وهو محركها وهو هدفها ، ولذلك فالتنمية الاجتماعية ، لابد وأن تسبق جميع عمليات التنمية الأخرى فى الدولة ، حتى تتحقق النتائج المرجوة فى العملية التخطيطية .

وهذا ما بدأ به الخليفة الراشد منذ توليه الخلافة ، حيث اتجه إلى الشعب يعوضه الحرمان الذى عاش فيه ، ويرفع عنه وطأة الظلم الذى قبع تحته ، ويعلمه كيف يمارس دوره فى الحياة ويكون له رأي عام قوى ، يوجه الحكام ، ويسدد خطاهم ، ويسهم فى دفع العملية الانتاجية لتحقيق التقدم للأمة الإسلامية .

ولذلك فقد شمل الإصلاح الاجتماعى عدة ميادين، نلخصها فى تلك النقاط الرئيسية:

١- الاهتمام بتكوين رأى عام قوى .

٢- رد المظالم إلى أهلها .

٣- الرفق بالناس وشمول مظلة التأمين الإجتماعى .

وسوف نتناول كل نقطة من تلك النقاط بعون الله تعالى وبما ييسره لنا جهدنا البشرى من اجتهاد :

أولاً : الاهتمام بتكوين رأى عام قوى

يختلف علماء السياسة فى تحديد مفهوم واحد للرأى العام (1) :

- فالبعض يعرفه بأنه « يشير إلى اتجاهات أفراد الشعب إزاء مشكلة ما ، فى حالة انتمائهم إلى مجموعة اجتماعية واحدة » .

- والبعض الآخر يعرفه بأنه : « تعبير أعضاء الجماهير عن الموضوعات المختلف عليها».

فالرأى العام هو : رأى أغلبية الشعب تجاه القضايا التى تواجه الوطن . وهو حين يبلغ مرحلة من القوة ، يستطيع أن يخذل أو يناصر قضية ما أو مبدأ معين ، ومن ثم يكون هو القوة الموجهة للسلطة الحاكمة ، والحكومات الرشيدة لا تستطيع أن تتجاهل الرأى العام ، ولهذا فإنها تطور سياستها وتشريعاتها ،لتتفق مع حقيقة الرأى العام، وفى هذا ما يدل على أن الشعب هو صاحب السلطة دائماً ،مادامت الحكومة تعترف بارادته.

دور عمر بن عبد العزيز فى نهضة الرأى العام :

- وقد تولى عمر بن عبد العزيز الحكم ، وهو يعرف أن الحكومة الأموية كانت ديكتاتورية ،تكمم الأفواه وتحبس المخالفين فى الرأى ، أو على الأقل تمنع عنهم عطاء الدولة، وتتركهم يقاسون الفقر والحرمان - فبدأ حكمه بإلغاء مبدأ التجريم بسبب الخلاف فى الرأى والأهداف ، ولم تعد الدولة تعاقب على الرأى ولا النشاط السياسى ، بل راح فى سرعة عجيبة ، يخلق رأيا عاماً صادقا أميناً فى طول الدولة وعرضها ، وراح يضع الحاكمين والمحكومين ، وجهاً لوجه أمام مسئوليتهما المشتركة ، فى دحض الخطأ ، والتزام الصواب فيكتب للولاة قائلاً :

- **« إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ، ولكن الإمام الظالم هو العاصى : ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »** (2) .

- ثم يكتب للناس فى شتى الأقاليم : **« أى عامل من عمالى رغب عن الحق ، ولم يعمل بالكتاب والسنة ، فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرت أمره إليكم ، حتى يراجع الحق وهو ذميم »** .

- ويرسل إلى أحد ولاته قائلاً : **« قد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما اعتدلت وإما اعتزلت »** .

---

(1) المدخل فى علم السياسة (د. بطرس غالى ، د. محمود خيرى عيسى) مكتبة الأنجلو المصرية - ص٥٤٤

(2) مروج الذهب - ج٢ ، ص٤٥

هكذا رفع سلطة الشعب فى وجه سلطة الحكم ، وأسلم نواحى ولاته وعماله للرأى العام ، يقودهم على طريق الحق ، طائعين أو كارهين .

أسلوبه فى بعث الرأى العام الشجاع :

لكى يدعم عمر بن عبد العزيز الرقابة الشعبية على السلطة التنفيذية ، ويبعث رأى عام شجاع ، ويزكى حرية النقد ، ويرسى دعائم سياسية على المبادئ السياسية الإسلامية ، من عدل - شورى - مساواة - حرية .

- من أجل كل ذلك ، فتح أبوابه على مصاريعها ، لكل شاك أو متظلم من حاكمه وواليه، وأرسل منشوراً موجزاً إلى جميع الأقطار :

« **من ظلمه إمامه مظلمة ، فلا إذن له علىّ** » .

أى ليقتحم علىّ دارى ، غير منتظر إذنا ، وغير واقف بباب .

- ثم يساهم أكثر مساهمة إيجابية ، فى بعث الرأى العام ، عن طريق رسم جوائز مغرية من بيت المال، لكل من يكشف عن خطأ، ويهدى إلى صواب ، فلنطالع فى انبهار ذلك المنشور الذى كتبه، ثم أمر أن يقرأ على الناس، فى المواسم والمحافل والمجامع:

« **أما بعد .. فأيما رجل قدم علينا فى مظلمة نردها ، أو أمر يحيى الله به حقاً ، أو يميت باطلاً ، أو يجئ بخير ، فله منا ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار ، بقدر مايتكابده فى ذلك ، من طول السفر وبعد الشقة** .

- عندما بويع عمر بن عبد العزيز ، قعد للناس على الأرض ، ليلغى حواجز الرهبة ، بين الحاكم والشعب ، ويغرس فيهم روح المساواة ، مما يشجع على إبداء الرأى .

وهذا ما نراه بوضوح ، فى تلك الحادثة التاريخية ، التى تدل على انتفاء الرهبة من الحاكم لأول مرة فى تاريخ الدولة الأموية :

- استقبل يوماً وفداً من أهل المدينة ، فأبصر فى الوفد غلاماً صغيراً يتقدمهم ، ليتحدث باسمهم ، ويعرض قضيتهم ، فتملاه أمير المؤمنين وقال له :

« **يا بنى .. دع القول لمن هو أسن منك** » ، فرد الغلام : يا أمير المؤمنين المرء بأصغريه: قلبه ولسانه ، ولو كان الأمر بالسن ، لكان فى المسلمين من هو أحق بهذا الأمر منك ، **فقال الخليفة : صدقت رحمك الله ، تكلم يا بنى** ، فقال الغلام :

- يا أمير المؤمنين ، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا، وقدمت علينا بلادنا ، وأما الرهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك [1] .

---

(١) العقد الفريد - ج٢ ، ص ١٤٠ ، ١٤١

وهكذا يوضح الغلام موقف الشعب إبان حكم عمر : شجاعة الرأى بدون رغبة ولا رهبة ، تحجب وصول الرأى الحر إلى الحاكم .

- ومن أعظم ما أداه ، فى سبيل إنهاض رأى عام ، أمين على مسئولياته وقادر عليها: حسر ذلك المد الطاغى ، لدولة الشعر والشعراء ، التى كانت قائمة قبل خلافته ، لتزييف الحق وتمكين سلطان الأمويين ، على حساب كل القيم والأخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقبة كئوداً فى سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها ، وجميع كتب التاريخ تذكر : أنه انفض عنه الشعراء والخطباء ، وثبت معه الزهاد والفقهاء .

فهو لم يكن يحتاج للشعر ليثبت حكمه ، لأنه ثبته بالعدل ، وحرية الرأى التى أتاحها للشعب ، وهو قبل هذا وذاك ، ليس له ولع بالسلطة ، ليحتاج للشعر فى حمايتها واستبقائها، ولا وقت لديه يضيعه مع الدعاية والإعلام المنافق للسلطة ، فوقته كله مكرس لإصلاح الأمة ، وتلبية احتياجات المواطنين .

- ومن مجاهداته لإمداد الرأى العام بالصدق والحقيقة : دوره فى دحر تلك الخطيئة الفاحشة ، التى كان الحكم الأموى يمارسها ، وهى لعن الإمام على - كرم الله وجهه على المنابر - وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة ، تلك الآيات المباركات :

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ [الحشر : ٥٩] .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ [النحل : ١٦] .

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق ، ودحر الباطل ، وآزر الحق [١] .

وكان ذلك إسهاماً فعالاً ، فى إنهاض رأى عام حصيف وأمين ، يساهم بإيجابية فى تحقيق الخير للأمة كلها ، بما يصلح أحوالها .

- ومن مظاهر بعث الرأى العام فى عصره :

كان لابد أن تثمر سياسة عمر بن عبد العزيز عن رأى عام قوى ، لأنه خليفة ديمقراطى من الطراز الأول ، يرحب بالنقد فى كل صوره ، وتملأ الغبطة روحه ، حينما يتلقى الحكمة والصواب من ألسنة الصادقين ، ويقول له بتواضع العظماء : « زدنى يا أخى ، جزاك الله خيراً » .

---

(١) معجزة الإسلام (عمر بن عبد العزيز) خالد محمد خالد - ص١٧١

– وهو لا تأخذه عزة السلطان ، فيصدر أحكاماً جائرة على مخالفيه فى الرأى ، بل هو يطبق شرع الله حتى لو خالف هواه :

اقتحم أحد الناس مسجد المدينة يوماً شاهراً سيفه ، يسب ويشتم أمير المؤمنين ، على ملأ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى ، ويرسل لأمير المؤمنين بأمره ، ويقول فى كتابه : « لقد هممت أن أقتله » .

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة ، حتى يجيب عليها فوراً : « أما والله لو أنك قتلته ، لقتلتك به » .

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم ، رجل من عامة الناس ، رافعاً عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحليم ، فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل : « **لعلك أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان فأنال منك اليوم فى الدنيا ما تتقاضاه منى غدا عند الله، ولكن لا ، فقم عفا الله عنك** » .

– وموقفه من قوى المعارضة وعلى رأسهم الخوارج ، يعتبر تتويجاً لسياسته فى بعث رأى عام قوى ، فهو يقر حقهم فى أن يكون لهم اقتناعهم ، ثم لا ينسى واجبه فى احترام هذا الحق لهم ، وضرورة إعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع ، ما دام نشاطهم لا يتحول إلى عمر إرهابى ، يستهدف سفك دماء الآخرين ، الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقتناعهم ، بل إنه يرى بحصافته الباهرة وسياسته الرشيدة ، أن السبيل الأمثل لصرفهم عن العامة والإرهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الرأى الحبيس المكبوت من الإنطلاق ، قبل أن يتحول داخل نفس صاحبه المقهورة ، إلى حقد موتور وقذيفة رعناء تزلزل أمن الأمة وسلامتها .

وهكذا ، لا تكاد تتحرك إحدى فرق الخوارج ، فى الأيام الأولى لخلافته ، مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يرسل إلى زعيمها ، يدعوه إلى الحوار الحر البناء ، الذى يقوم على مرضاة الله ورسوله ، فيخجل الزعيم ويلقى سلاحه ، ويستجيب لأمر الخليفة فى الحوار، للتوصل إلى الحقيقة التى خرجوا ثائرين من أجلها .

ولقد سمح لكل فرق الخوارج وغيرها ، أن تسيح فى الأرض لنشر آرائهم وأفكارهم ، طالما فى غير أذى لأهل الذمة ولا للأمة .

فالتطرف الفكرى الذى يدعو إلى الأذى ممنوع ، ولكن الحوار الذى يقوم على حرية الرأى ومبادئ الخير لا مانع منه ، بل هو ضرورى لصقل شخصية الأمة .

لماذا اهتم عمر بن عبد العزيز بتكوين رأى عام قوى ؟

إن بناء الرأى العام على دعائم ثابتة من مكارم الأخلاق ، هو هدف الشريعة الإسلامية لتصحيح مسار المجتمع ، إذا جرفه تيار البدع أو الإعلام المضلل ، أو تصحيح مسار الحاكم إذا انحرفت به الأطماع والشهوات ، عن الحق والعدل .

وبهذا تصبح للرأى العام قوته ، ودوره الأساسى فى الإصلاح الاجتماعى ، والحفاظ على موازين المجتمع وقيمه ، إذا نهض على قيم ومعانى نبيلة ، وكفل له الحرية للتعبير عن اتجاهاته، ولذلك فقد اهتمت الشريعة الإسلامية اهتماماً بالغاً بالرأى العام ، وجعلت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أساسيات الإيمان ، لأن فيه صلاح الأمة وقوامها وخيريتها على باقى الأمم .

قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ .

[آل عمران : ١٠٤]

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هو الإطار العام الذى يُشكل من خلاله رأى الشعب ، ورؤيته للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بحيث يكون رأياً حراً ناضجاً لا تضلله الأهواء ولا الإشاعات الكاذبة ، ولا الدعاية المغرضة ، بل هو رأى صقلته العقيدة والدوافع النبيلة ، التى تبتغى مصلحة الأمة وإحقاق الحق .

وإن رأياً كهذا ، لجدير بأن يقود الأمة إلى مصاف الدول المتقدمة حضارياً ، بل يكون لها السبق فى التقدم ، لأنها بنيت على دعائم الحق والعدل والشورى ، المبنية على الصدق واليقين وإخلاص النية لله ، ولهذا فإن المولى جلَّ شأنه ضمن لهذه الأمة - ووعده حق - أن تكون خير أمة ، على مدار العصور جميعها إذا التزمت دوماً بالإيجابية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾** . [آل عمران : ١١٠] .

وقال صلوات ربى وسلامه عليه ، داعيا إلى ضرورة أن يكون للمؤمن رأيه وإيجابيته ، تجاه قضايا المجتمع والأمة :

- عن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » . (رواه مسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى) .

- وعن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال : عن النبى ﷺ قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان أو أمير جائر » . (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه) .

- وعن عبادة بن الصامت (رضى الله عنه) قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا ، عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم . (رواه البخارى ومسلم) .

- وعن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحقرن أحدكم نفسه . قالوا يا رسول الله : وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أن عليه مقالا، ثم لا يقول فيه ، فيقول الله عز وجل يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول : فإياى كنت أحق أن تخشى» (رواه ابن ماجه).

من أجل تلك الإيجابية ، التى فرضتها الشريعة الإسلامية على آراء المسلمين ، كان لابد للخليفة العادل أن يوفر المناخ الملائم لصقل الشخصية الإسلامية ، وتكوين رأى حر ناضج يتفق وعظمة الرسالة التى تؤمن بها الأمة .

- لذلك لم يكن غريباً أن تكون أول خطبة له بعد الخلافة :

« لقد سن رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده سنناً ، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة لدين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا الركون لأمر خالفها .. من اهتدى بها فهو المهتد ، ومن استنصر بها فهو المنصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ، ولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا .. » .

- وليس غريباً أن يطهر الرأى من النفاق والرياء ، الذى يدعو إلى إسباغ صفات وألقاب على الرؤساء ، ليسوا منها فى شئ .

ناداه يوماً رجل من المسلمين قائلاً : « يا خليفة الله فى الأرض » .

فأخذته الرعدة الصالحة وصاح فى الرجل : « مهْ ، إنى لما ولدت أسمانى أهلى عمر فلو ناديتنى يا عمر أجبتك ، ولما كبرت اخترت لنفسى كُنية ، فكنيت « أبا حفص » ، فلو ناديتنى يا أبا حفص أجبتك ، ولما وليتمونى أموركم سميتمونى « أمير المؤمنين » فلو ناديتنى يا أمير المؤمنين ، أجبتك ، وأما خليفة الله فى الأرض فلست كذلك ، إنما خلفاء الله فى الأرض رسله وأنبياؤه » .

- كما منع الدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة ، ليعلم الرأى العام الاستقلال فى الشخصية ، وأرسل بذلك كتاباً حازماً إلى ولاته فى جميع الأقاليم قائلاً فيه :

« مروهم فليصلوا على النبى عليه السلام ، وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم ، ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات ، وليستنصروا الله ، وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين ، وليدعوا ما سوى ذلك » .

إن القلم ليعجز أمام عظمة الشريعة الإسلامية فى صقل شخصية الرجال ، وعمر بن عبد العزيز يقف قلعة شامخة فى مصاف الفكر السياسى والاقتصادى والاجتماعى : فلو أن قائداً سياسياً وقف يفخر بديمقراطيته فى أنه يسمح بحرية النقد ، فإن التاريخ يشهد لعمر بن عبد العزيز ، بما هو أعظم من ذلك : يشهد بأنه أيقظ الشعوب من سباتها ، ودفعها دفعا إلى أن تمارس دورها فى النقد الإيجابى البناء عملاً بشريعتها .. وتلك عظمة لا تدانيها عظمة .

ثانياً : رد المظالم إلى أهلها

إن كلمة « رد المظالم » على بساطتها ، تعنى خطوة عظمى نحو طريق الإصلاح الاجتماعى ، وتعنى كفاحاً مستمراً ضد الظالمين ، بما كلف الخليفة العادل حياته ، فنال مكانة الشهداء ، لأنه جاهد لإعلاء راية الحق والعدل عالية ، وهى منزلة رفيعة تليق بالمجاهدين الأبرار ، الذين وهبوا حياتهم لله ، فبذلوا الغالى والنفيس فى سبيل أداء الأمانة ، والقيام برسالة وجودهم على الأرض خير قيام .

وكلمة (رد المظالم) تعنى تحقيق العدالة الاجتماعية فى توزيع ثروات الأمة ، وتعنى تحقيق مبادئ الفكر السياسى الإسلامى من عدل وشورى ومساواة وحرية ، وتعنى دك حصون الطغيان والظلم ، وإقامة المجتمع على تقوى من الله ورضوان ، فيصير بنيانا متكاملا وطيد الأركان شامخ البناء ، يعيش فيه المواطنون أعزة كراماً ، لا تفرقة بينهم تسبب الأحقاد والعداوات ، ولا ظلم يشتت قواهم ويوهن عزائمهم .

و « رد المظالم » هو : الثورة الاجتماعية فى عصر (عمر بن عبد العزيز وقد تمثلت فى نزع الأرض والمال والثروة ، وكل المقتنيات التى كانت فى صدر الإسلام ، ملكا لبيت مال المسلمين ، أى للأمة ، وكانت تمثل الثروة الأساسية للمجتمع والأمة ، انتزعها من حيازة الذين حازوها وملكوها ، وردها مرة أخرى إلى بيت مال المسلمين ، وعالج المظالم الفردية ، فرد الحقوق المغتصبة إلى أصحابها ، وذلك حتى يضع الأمور فى نصابها ، ويقضى على الظلم والاستغلال الذى تعرضت له ثروة الأمة :

- فعندما فتح المسلمون - على عهد عمر بن الخطاب المجتمعات الزراعية والغنية ، ذات الثروة والحضارة ، لم يخضعوا لما كان بهذه المجتمعات ، من فلسفات اجتماعية طبقية واستغلالية ، إنما طوع الخليفة عمر بن الخطاب نظام تلك المجتمعات ، ومن ثم نظام الدولة الاجتماعى بأكمله للفكر الإسلامى المتقدم [1] ، وذلك عندما استقر الأمر على

---

(١) عمر بن عبد العزيز (ضمير الأمة وخامس الراشدين) د. محمد عمارة - ص ٧٤

جعل ملكية رقبة الأرض ، فى أحواض أنهار تلك البلاد بأكملها ، لبيت مال المسلمين ، أى للأمة جمعاء ، أجيالها الحاضرة والمستقبلة ، ولقد قال عمر بن الخطاب يومها ، تزكية لهذا الاتجاه ، ضد الاتجاه الذى رأى أصحابه توزيع أربعة أخماس هذه الأرض ، بمن فيها من الفلاحين ، على الجند الفاتحين لهذه البلاد ، ملكا خاصاً لهم ، قال عمر : « ما هذا برأى ، ولست أرى ذلك ، فإذا قسمت هذه الأرض ، فما يسد به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل ؟ لقد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم فى هذا الفئ ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شئ » .. فأصبحت هذه الأرض ، وهى الثروة الأساسية للدولة ، ملكا جماعياً لمجموع الأمة فى حاضرها ومستقبلها ... وبعبارة أبى عبيد القاسم بن سلام : «فيئاً موقوفا للمسلمين ما تناسلوا ، يرثه قرن عن قرن (أى جيل عن جيل) » [(١)] .

- لكن هذا الذى استقر عليه الإسلام والمسلمون ، حتى عهد عمر ، قد بدأ يتغير منذ خلافة عثمان بن عفان .. فأشراف قريش الذين حجزهم عمر بالمدينة ، ومنعهم من السعى لحيازة الثروات ، وامتلاك الأرض فى البلاد الغنية المفتوحة ، قد انطلقوا وحققوا مطامحهم ومطامعهم على عهد عثمان .. وكما يقول الطبرى : فإن عمر كان قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين ، الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل .. فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان عمر يأخذهم به ، فخرجوا إلى البلاد ، فلما نزلوها ورأوا الدنيا، ورآهم الناس ، فانقطع إليهم الناس ، وتقربوا إليهم وقالوا : يملكون فيكون لنا فى ملكهم حظوة ، فكان ذلك أول وهن على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة ! ولذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر [(٢)] .

- وملأ قريش هؤلاء الذين بدأت تتغير لمصلحتهم فلسفة المجتمع المالية - كان بنو أمية فى مقدمتهم بل كانوا معظمهم ، فكما يقول ابن خلدون : « إن عصبية مضر كانت فى قريش ، وعصبية قريش فى عبد مناف ، وعصبية عبد مناف إنما كانت فى بنى أمية»[(٣)].

- والأرض التى استصفاها المسلمون عند الفتح ، والتى كانت ملكا لكسرى وأمرائه وقواده وحكومته ، أصبحت فى عهد عمر ملكا للأمة وسميت الصوافى ، وذلك لحكمة عمر وعدله فى تحقيق العدالة فى توزيع الدخول ، وحتى لا تتكدس الثروات فى أيدى فئة قليلة وما يجده ذلك من انحرافات ، توهن كيان الأمة ، وتضعف تقدمها الحضارى وترابطها الاجتماعى.

---

(١) الأموال لأبى عبيد - ص ٥٧ - ٥٨ ، والخراج لأبى يوسف ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٥

(٢) ابن أبى الحديد (شرح نهج البلاغة) ج١١ - ص ١٢ ، ١٣ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩

(٣) المقدمة لابن خلدون - ص١٧١- طبعة القاهرة - سنة ١٣٢٢

– ولكن فى عهد عثمان بن عفان ، بدأ إقطاع هذه الأرض للأفراد [١] ، ومثل ذلك حدث لأرض العراق ، فلقد كانت ملكا عاماً للأمة وبيت ومالها ، حتى كان عهد عثمان فبدأ يقطعها هى الأخرى [٢] ، واستمر النمو لحجم الحيازات الخاصة والاقطاعات فى الأرض ، على حساب الملكية العامة لها ، وبالتالى خزانة الدولة ، حتى كان عهد الحجاج بن يوسف ، عندما احترقت سجلات الديوان سنة ٨٢ هـ فى موقعة دير الجماجم ، أثناء قتال الدولة للثوار ، فضاعت الوثائق التى تجعل ملكية هذه الأرض – كتابة لبيت المال ، بعد أن ضاعت هذه الملكية العامة فى الواقع العملى ، وعند ذلك – كما يقول الماوردى : «أخذ كل قوم ما يليهم » [٣] واستأثروا به دون بيت المال وعامة المسلمين .

ولقد انعكست هذه التغيرات التى حدثت فى فلسفة المجتمع الاقتصادية ، على التعاون الاجتماعى والمالى ، الذى أخذ يتضح بين الخاصة وبين العامة ، فى توزيع الثروات ومستوى الدخل الفردى ، وبالتالى الظلم الاجتماعى .

– واستفزت هذه الأمور المحدثة عامة المسلمين إلى الثورة ، التى أنهت عهد عثمان بن عفان ، وجاءت بعلى بن أبى طالب إلى الخلافة ، كى يرد المظالم ، ويغير ما أحدثه عثمان من تغيرات فى بنيان المجتمع الإسلامى .

ولقد حاول على بن أبى طالب ذلك ، ولكن بنى أمية ومن شايعهم ، كانوا له ولثورته بالمرصاد . .

ثم تداعت الأحداث ، حتى أفضت بالسلطة كاملة إلى معاوية بن أبى سفيان ، فكانت الدولة الأموية هى الامتداد لعهد عثمان بن عفان ، ومن ثم كانت سياستها المالية وفلسفتها الاجتماعية تطوراً نحو الأسوأ ، ونموا فى اتجاه سيادة الواقع الاجتماعى الطبقى الاستغلالى ، الذى ثار عليه المسلمون فى عهد عثمان ، وحاولوا تغييره بقيادة على بن أبى طالب ، ثم استمرت شكواهم منه ، وانتفاضاتهم ضده تحت حكم الأمويين .

– لقد انتقلت على عهد عثمان أجزاء من ثروة الأمة العامة إلى حيازة الأفراد . . وسماها الناس (مظالم) وكان مطلبهم عندما ثاروا على عثمان :

رد المظالم أو اعتزال الخلافة . . وعلى عهد بنى أمية ، وعندما وصل منصب الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، كان الجزء الأكبر من ثروة الأمة قد انتقل إلى حيازة الأفراد. بل وملكيتهم. .فكانت تلك هى المظالم ،التى تمثلت فى ردها إلى نصابها الحقيقى مما يعتبر

---

(١) يحيى بن آدم (الخراج) ص ٧٩ طبعة سنة ١٣٤٧هـ ، و (الخراج) لأبى يوسف – ص٦٢

(٢) البلاذرى (فتوح البلدان) ص ٢٨٢ – طبعة القاهرة – سنة ١٣١٩ هـ .

(٣) الأحكام السلطانية – ص١٩٣ – طبعة القاهرة – سنة ١٩٧٣

ثورة اجتماعية بكل المقاييس : فهى تعنى ذلك التغيير الاجتماعى الجذرى والعميق ، الذى ينتزع ثروة المجتمع من أولئك الذين احتازوها وتوارثوها ، منذ عهد عثمان وحتى عهد سليمان بن عبد الملك ، وردها ثانية إلى ملكية الأمة عامة ، كما كانت على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) .

- كما أنه لم يهمل معالجة المظالم الفردية ، التى حدثت خلال هذا الظلم العام فكتب إلى عماله فى الأقاليم والأمصار ، أن يحصروا كل جور حدث فى العهود التى سبقت عهد الإصلاح ، سواء أوقع ذلك الجور على مسلم أو غير مسلم ، فيرفعونه ويردون الحق إلى أهله فإن كانوا قد ماتوا ردوه إلى ورثتهم ، وإن كان بيت المال لا يكفى لرد حقوق المظلومين أرسل إليهم من فائض بيت المال فى جهة أخرى ، حتى يستوفى أصحاب الحقوق حقوقهم.

- وكان عمر يدرك أن تقادم العهد على حدوث الجور والظلم ، وذهاب الشهود بالموت أو الرحيل ، والسلطان الأدبى للظلمة قياساً إلى ضعف المظلومين ، كل ذلك يضعف من حجج المظلومين فى طلب الحقوق ، فتعوزهم الأدلة لإثبات حقوقهم التى اغتصبها منهم الطغاة ، فكتب إلى عماله يطلب منهم مراعاة هذه الملابسات عند رد المظالم إلى أصحابها، وبعبارة القدماء : فإنه « كان يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة ، كان يكتفى بأيسر من ذلك ، إذا عرف وجها من مظلمة الرجل ردها عليه ، ولم يكلفه تحقيق البينة لما كان يعرف من غشم الولاة [1] .

ولذلك كانت توصيته إلى ولاته ، أن يبدلوا الجور بالعدل بقدر جهدهم ، فأرسل لكل منهم رسالة يقول فيها : « **إن قدرت أن تكون فى العدل والإحسان ، كقدر من كان قبلك فى الجور والعدوان والظلم فافعل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله** » [2] .

- وهكذا فإن كلمة رد المظالم: عملية إصلاحية عظيمة، لها ثقلها ومدلولاتها فى تاريخ الأمة الإسلامية، وفى تاريخ البشرية جميعاً، وتعنى العقيدة الراسخة لدى عمر ابن عبد العزيز، ونيته الصادقة فى تحقيق العدل الذى أمرت به شريعة الإسلام، وتعنى عزمه الذى لا يلين فى سبيل الإصلاح، مهما واجه من تحديات وصعاب، فقد هان كل متاع الدنيا وزيفها وعنائها وكدوراتها، بجانب ما تشوقت إليه روحه من قيم عليا ونعيم أخروى.

وإن ما يعطى ويضفى على ثورته الاجتماعية مكانة رفيعة ومذاقاً خاصاً: أنها كانت ضد الظلم، وفى سبيل تحقيق العدل والحق، وأنه قبل هذا وذاك بدأها بنفسه، كما رأينا فى الصفحات السابقة-لأن هذا من أساسيات العقيدة الإسلامية ،حيث ينعى الله على الذين

---

(١) طبقات ابن سعد - ج٥ - ص٢٥٢

(٢) طبقات ابن سعد - ج٥ - ص٢٨٣

يقولون ما لا يفعلون ، أو الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم : فهو القدوة والناس على دين ملوكهم ، فإذا أمر نفسه بالحق ، ورد كل ممتلكاته إلى بيت المال وعاش زاهدا متقشفاً ، هان على الباقين ما ألزمهم به ، وفقدوا حجتهم فى الثورة على حرمانهم من ممتلكاتهم .

- ومع ذلك فقد كانت معركته شرسة مع الأمراء والأميرات من بنى أمية ، لما لهم من شوكة وجاه وأعوان ونفوذ ، ومع ذلك فلم يتردد ، ولم يتوان عمر بن عبد العزيز عن جهاده فى سبيل رفع راية الحق عالية ، والدفاع عن شريعة الله ، مهما واجه من صعاب وتحديات : فقد أخذ يرد المظالم ، من لدن معاوية إلى أن استخلف (مدة تصل إلى أكثر من نصف قرن ، حُرِم فيها المواطنون من حقوق كثيرة ، اغتصبت منهم ظلما وعدوانا) فأخرج من أيدى ورثة معاوية ويزيد ابن معاوية حقوقا ، ردها جميعا إلى بيت المال ، بل وأخرج من هذه الأموال زكاتها فى تلك السنوات [1] .

ولم يقف عمر مع أمراء بنى أمية عند حد انتزاع ما بأيديهم ، من القطائع والأموال والثروات والمقتنيات ، التى حصلوا عليها ظلما لحقوق العامة ، بل منع عنهم ما كان الخلفاء السابقون قد أغدقوه عليهم ، من الرواتب والمخصصات ، بما وصل إلى ثلث ميزانية الدولة .

وقال لمن أبلغه شكواهم ومعارضتهم : ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم ، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم [2] .

وهكذا فإن (رد المظالم) : يعتبر الحجر الأساسى الذى قام عليه الإصلاح الاجتماعى، مما حقق بدوره الإصلاح السياسى والاقتصادى ، ولقد صدق المؤرخون حين قالوا : إنه لم تكن همة عمر بن عبد العزيز إلا رد المظالم والقسم بين الناس [3] .

وعندما قالوا : إن كتبه إلى عماله وولاته على الأمصار والأقاليم ما كانت لتخلو من :

- رد مظلمة من غاصبها إلى صاحب الحق فيها .
- أو إحياء سنة حسنة أماتها الذين سبقوه .
- أو إطفاء بدعة سيئة أحياها المتقدمون عليه .
- أو قسم فى الأموال بين الناس بالعدل .
- أو تقدير عطاء يعين بتقديره الولاة والعمال على العدل بين أصحاب العطاء .
- أو خير ينصح به ويدعو إليه الولاة وعامة الناس .

---

(١) طبقات ابن سعد - ج٥ - ص ٢٥٢
(٢) طبقات ابن سعد - ج٥ - ص٢٧٥
(٣) طبقات ابن سعد -ج ٥ - ص ٢٦٣

كان ذلك دأبه ودأب كتبه منذ تولى الخلافة حتى خرج من الدنيا راضيا مرضياً [1] .

ولا شك فى أثر منهاجه الدءوب المخلص هذا ، على تحقيق أعلى مراحل الإصلاح الاجتماعى للأمة ، لأنه يرعاها فى شئون دينها ودنياها .

ثالثا : الرفق بالناس وشمول مظلة التأمين الاجتماعى

إن الرفق بالناس ، ومحاولة تخفيف أعباء المعيشة عليهم بكل السبل ، لم يكن وليد خلق رفيع اتسم به الخليفة عمر بن عبد العزيز فحسب ، إنما هو بلورة لعقيدة سامية امتزج بها كيانه وانفعل بها وجدانه ، وأصبحت منهاجاً تشريعياً يلتزم به فى كل خطوة من خطواته، وكل لحظة من لحظات حياته .

وكيف لا يكون رفيقاً بالناس والله جل شأنه يقول فى كتابه الكريم :

- ﴿ **يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً** ﴾ . [النساء : ٢٨] .

- ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ . [البقرة : ١٨٥] .

ويضع الرسول ﷺ المنهاج التفصيلى لكل راع مسئول عن رعيته فيقول :

- عن أنس (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال : « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » . (رواه البخارى ومسلم) .

- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر فى الدنيا، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مسلم فى الدنيا ، ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

(رواه أبو داود ومسلم والترمذى) .

روى عن ابن عمر (رضى الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله خلقا خلقهم لحوائج الناس ، يفزع الناس إليهم فى حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله .

(رواه الطبرانى وابن أبى الدنيا) .

- عن أبى الدرداء (رضى الله عنه) عن النبى ﷺ قال : من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير .

(رواه الترمذى) .

- من أجل عقيدة جاء بها نبى الرحمة من لدن الرحمن الرحيم الذى كتب على نفسه

---

(١) طبقات ابن سعد ج٤ - ص ٢٥٢

الرحمة، صدرت أوامر عمر إلى ولاته بالرفق بالناس ،ونهى عن التعذيب فى استخلاص الحقوق ، وحذر من التمثيل بأحد ،حتى ولو كانت المثلة جر الرأس أو جذب اللحية (١) وذلك بعد أن بلغت المثلة والتعذيب قبل عهده حدا فاق فى بشاعته الأساطير ، وبهذا يكون قد وضع المنهج الإسلامى الخاص بحقوق الإنسان وحريته ، موضع التطبيق .

– ولما كتب إليه عامله على خراسان : الجراح بن عبد الله الحاكمى يستأذن فى استخدام (السيف والسوط) لتأديب الناس ،زاعماً أنهم أهل فتنة ، يقفزون إلى أحداثها قفزاً، فليس يكفهم إلا السيف والسوط . انتهره عمر بن عبد العزيز ورد عليه قائلاً : « يا ابن أم الجراح أنت أحرص على الفتنة منهم ، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً ، إلا فى حق ، واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » ولكن الجراح كان والياً (همه بالمال وبيته ، أكبر من همه بالعدل وموازينه) فأراد الاستمرار على السنة الخبيثة لولاة السوء ، الذين سبقوه ، بأخذ الجزية من الذين دخلوا حديثا فى دين الإسلام .

– ولما كتب إليه عمر : « انظر من صلى إلى القبلة فضع عنه الجزية » أراد أن يتعلل بأن الناس قد دخلوا الإسلام هربا من الجزية ، وليس رغبة فى هدى الدين الجديد ، وأشار عليه بعض خاصة السوء ، أن يجعل لصحة الإسلام مواصفات منها الختان ! فلما علم عمر بذلك تعجب وكتب إليه مقبحا رأيه ، ومنبها له على أن الله سبحانه قد بعث محمد ﷺ داعيا ولم يبعثه خاتناً .

– وأمام هذا الاعوجاج فى سلوك الجراح ، الذى يتنافى مع عدل الإسلام ورحمته ورفقه، طلب عمر إلى واحد من قراء خراسان الصالحين ، أن يقدم إليه تقريراً عن حال الولاية وصنيع الوالى مع الناس ، فاستدعى أبا الصيداء صالح بن طريف ، وسأله عن ذلك فقال له : يا أمير المؤمنين عشرون ألفا يغزون بلا عطاء ولا رزق ، ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج ، وأميرنا عصبى ، ومتعصب للعرب ضد الموالى. جاف ، خشن ، يقوم على منبرنا فيقول : أتيتكم جافيا ، وأنا اليوم عصبى ، والله لرجل من قومى (العرب) أحب إلى من مائة من غيرهم .

وبلغ من جفائه أن كم درعه يبلغ نصف درعه ، وهو بعد سيف من سيوف الحجاج ، قد عمل بالظلم والعدوان (٢) .

– فلم يجد عمر بن عبد العزيز بدأ من عزل الوالى ، لأنه يسير فى الناس بسيرة عمال السوء ، الذين أرهقوا الشعوب بظلمهم وطغيانهم ، وأصبحت الشعوب تتوق إلى رحمة

(١) طبقات ابن سعد – ج٥ – ص٢٨٠ (٢) تاريخ الطبرى – ج٦ – ص٥٥٨ – ٥٦٠

الإسلام ورفقه ، وحفاظه على حقوق الإنسان وحريته وأمنه .. وبعد عزل عمر بن عبد العزيز للجراح بن عبد الله عن ولاية خراسان ، ولى عليها عبد الرحيم بن مغيم ، وكتب إليه :

أما بعد .. فكن عبداً ناصحاً لله فى عباده ، ولا يأخذك فى الله لومة لائم ، فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، فلا تولين شيئاً من أمر المسلمين ، إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوقير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهب على الله مذهباً فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه [1] .

ومن رفقه بالرعية أنه راح يمزق كل أقنعة للصلف والكبر والتمايز وأيضاً بدأ بنفسه فمنع الحراس أن يسيروا بين يديه ، ومنع الناس جميعاً أن يقوموا له حين يطلع عليهم وقال لهم : « إنما يقوم الناس لرب العالمين » ، كما جلس لهم على الأرض بعدما بويع للخلافة فى سابقة لم يحدث لها مثيل فى الدولة الأموية على مدى أكثر من نصف قرن.

- ومن رفقه بالرعية أنه يتحول إلى إعصار مدمدم إذا مس أى منهم أذى بدون وجه حق : أخبر أن أحد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وكان مقاتلاً شديد البأس قد وقع أسيراً فى أيدى الرومان ، وحمل إلى الإمبراطور الذى حاول إكراهه على الخروج من دينه (الإسلام) ورفض الأسير ، فأمر الإمبراطور أن تُسمل عيناه .

بلغ النبأ - أمير المؤمنين - فهب ثائراً أمام جبروت الباطل يدافع عن مواطنيه : وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم : « **أما بعد .. فقد بلغنى ما صنعت بأسيرك فلان ، وإنى أقسم بالله ، لئن لم ترسله إلىّ من فورك لأبعثن إليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندى** » ويعود الأسير إلى وطنه وأهله .

- وبلغ الرفق إشفاقاً على الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء السبيل حداً يستحيل وجوده بين الرؤساء والملوك والمجال السياسى عموماً :

خرج ابن صغير له يلعب أمام داره مع الصبيان فشجه أحدهم حتى سال دمه ، فصرخ صراخاً عالياً ، فخرج أتباع عمر يهددون الصبى الضارب وأمه ، وتعالى الصياح فأسرع عمر ليتبين الأمر ، فلما رأى دم ابنه يسيل أمر أن يحملوه إلى داخل الدار ليعالجوه ، وإذا أم الصبى الذى جرح ابنه تفزع إليه وقد أخذها الخوف وتقول له : يا أمير المؤمنين ، إن ابنى يتيم ، فقال لها : « **هونى عليك ، أله عطاء فى الديوان ؟** » قالت : لا ، قال :

---

(١) تاريخ الطبرى - ج٦ - ص٥٦١ ، ٥٦٢

« فاكتبوه » فقالت له زوجته فاطمة : أتفعل هذا وقد شج ابنك ؟ ففعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية ! قال : « ويحك إنه يتيم وأفزعتموه » ! .

وتلك حادثة نادرة ، تتوارى بجانبها مجهودات رعاية الطفولة فى العصر الحديث .

شمول مظلة التأمين الإجتماعى أرجاء الأمة :

ومن شدة رفقه بالرعية أنه شمل (ما يسمى بالتأمين الاجتماعى) جميع مواطنى الأمة من حدود الصين شرقا إلى حدود فرنسا غرباً :

- ففرضت الدولة العطاء ، وأدخلت على ديوانه الإصلاحات ، فعاد ليشمل الثوار الذين حرمهم الخلفاء الأمويون السابقون ، وليضم الموالى الذين استبعدوا من قوائمه ، وتساوى فيه العرب والموالى ، فى الرزق والكسوة والمعونة والعطاء [1] .

- وفرضت الدولة للمرضى بأمراض مزمنة ، تعجزهم عن العمل (الزمنى) . .ولقد أراد بعض الولاة - ومنهم صاحب ديوان دمشق - أن ينفق عليهم صدقة ، دون أن يحدد لهم فى بيت المال حقوقاً واجبة ومقررة ومفروضة ، فشكوه إلى عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه أن يفرض لهم حقوقاً واجبة ، لا مجرد صدقات وإحسانات ، وقال له : « إذا أتاك كتابى هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم ، فإنى لا أحب ذلك[2].

- وكان عمر بن الخطاب قد جعل لذرية المقاتلين ، الذين قامت الدولة بجهادهم عطاء محدداً فى الديوان ، يتوارثونه ، فلما جاء حكم معاوية ضيق نطاق هذا العطاء ، فأصبح سلاحا بيد الدولة للترغيب والترهيب ، فلما حكم عبد الملك بن مروان أوقف هذا العطاء كلية ، ولكن عمر بن عبد العزيز أعاد عطاء أبناء المقاتلين وذريتهم ثانية إليهم ، وحكمت العدالة والمساواة توزيعه فيهم ، كما كان الحال زمن عمر بن الخطاب [3] . ولقد أصبح العطاء بهذا القرار عاما وشاملا .

فالذين بلغوا من العمر خمس عشرة سنة ، أصبح لهم عطاء المقاتلين ، ومن سنهم دون ذلك أصبح لهم عطاء الذرية [4] .

وامتدت الدولة وبيت مالها بعطائها إلى الكثير من مجالات الخدمات ، التى تيسر على الناس أمور الحياة رفقا بهم ورحمة ، حتى لقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته وعماله فى الأقاليم ، أن يقيموا الخانات (النزل - الفنادق) لنزول المسافرين - وأصبح حقا للمسافر أن يقيم على نفقة الدولة بهذه الخانات يوماً وليلة ، يقدم له فيها الطعام، بل

---

(١) طبقات ابن سعد - ج٥ - ص٢٥٥ ، ٢٧٧

(٢) طبقات ابن سعد - ج٥ - ٢٨١

(٣) تاريخ الدولة العربية - ص٢٨٨ ، ٢٨٩

(٤) الخراج لأبى يوسف - ص ١٧٥

ويتعهدون له أيضاً ما بصحبته من دواب ، فإذا كان المسافر مريضاً ، كان حقه الإقامة فيها يومين وليلتين .

فإن كان هذا الغريب منقطعاً - أى لا أهل له - من أبناء السبيل ، كان له فوق إقامته بالخانات وإعاشته منها : المعونة التى تعينه على الوصول إلى البلد الذى يريد (١) .

- ولقد نظر عمر بن عبد العزيز إلى من تثقل كاهلهم « أمانات » لا يستطيعون الوفاء بها ، وإلى من رغب الزواج ولا قدرة له على دفع (الصداق) فجعل لهؤلاء حقا مقرراً فى بيت المال ، وكتب إلى عماله على الأقاليم :

« ومن كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله ، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها ، فأعطوه من مال الله (٢) .

لقد وصل عدل عمر ورفقه برعيته ، وشمول مظلة التأمين الاجتماعى ، حداً لن تبلغه أية دولة متقدمة فى العصر الحديث ، مهما ادعت الحضارة والحفاظ على حقوق الإنسان .

وتلك نماذج سريعة من قوانينه التشريعية ، التى صدرت فى صورة رسائل إلى عماله :

- كتاب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن : انظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة يحج بها والسلام (٣) .

- **وكتب إليه أيضاً** : كتبت إلى تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون ، من اليهود والنصارى والمجوس ، وعليهم جزية عظيمة ، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم ، وإن الله - جل ثناوه - بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً ، فمن أسلم من أهل تلك الملل ، فعليه فى ماله الصدقة ولا جزية عليه ، وميراثه لذوى رحمه إذا كان منهم ، يتوارثون كما يتوارث أهل الإسلام ، وإن لم يكن له وارث ، فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يقسم بين المسلمين ، وما أحدث من حدث ، ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام (٤) .

- وكتب إلى عدى بن أرطأة :

بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر - أمير المؤمنين - إلى عدى بن أرطأة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين :

سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فانظر أهل الذمة

---

(١) تاريخ الطبرى ج٦ - ص٥٦٧ (٢) طبقات ابن سعد - ج٥ - ص٢٧٦

(٣) الخراج لأبى يوسف ص ٧٦ ، وتاريخ الطبرى ج٦ ص ٥٦٩

(٤) الخراج لأبى يوسف ص ١٣١ ، ١٣٢

فارفق بهم ، وإذا كبر الرجل منهم ، وليس له مال ، فانفق عليه ، فإن كان له حميم، فمر حميمه ينفق عليه ، وقاصه من جراحه ، كما لو كان لك عبد ، فكبرت سنه ، لم يكن لك بد من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق (١) .

- وكتب إليه أيضاً : أما بعد ، فإن أمكنتك القدرة على المخلوق ، فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم أن مالك عند الله ، مثل ما للرعية عندك (٢) .

- وكتب إلى عبد الرحمن بن نعيم ، بقلب اتسع رحمة لكل مخلوقات الله ، حتى شمل كل دابة على الأرض ، فقال له : ولا تجروا شاة إلى مذبحها ، ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة (٣) .

- يطلب إليه يوماً الموافقة على صرف مبلغ كبير من المال ، لكسوة الكعبة ، فيكون جوابه : إنى أرى أن أجعل هذا المال فى أكباد جائعة ، فإنها أولى به من الكعبة .

- كتب إلى ولاته يعلمهم المبادئ الحليمة ، والقيادة الرشيدة فى حكم الشعوب :

« لا تأخذوا من أموال الناس ، إلا الحق الذى شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله - لا أفرق بين مسلم وأهل كتاب » .

« ضعوا السخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل أجره » .

« لا تتخذوا على أبوابكم حجاباً ، يمنعون ذوى الحاجات والمظلومين » .

« تعاهدوا حجابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم والعاملين معكم ، وأكثروا المسألة عنهم ، حتى تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشماً ولا ظلماً » .

« سددوا المخالفين وبصروهم ، وارفقوا بهم وعلموهم ، فإن اهتدوا ، كانت نعمة من الله وفضلاً ، وإن أبو فتحروا الحق فيما تنزلون بهم من عقاب » .

« أكثروا من دعاء الله بالعافية ، لأنفسكم ولمن ولاكم الله أمره ، فإن لكم فى إصلاحهم أكثر مما لهم ، وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم » .

« دعوا الناس يتجرون بأموالهم فى البر والبحر ، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم » .

« أبيحوا أرض الحمى للمسلمين عامة ، وليكن حق الأمير فيها كحق واحد منهم » .

« ردوا المزارع لما خلقت له ، فإنما جعلت لأرزاق المسلمين كافة » .

إن رفقه بالناس ورحمته وعدالته ،وحرصه على مصالحهم ،لأمر يعجز القلم أن يوفيه

---

(١) طبقات ابن سعد - ج٥ - ص٢٥٢
(٢) العقد الفريد ج١ ص٤٠
(٣) تاريخ الطبرى - ج٦ - ص٥٧٢

حقه: فهو خليفة مؤمن عرف الله حق معرفته ، وهو إمام مصلح اتبع نهج رسوله ﷺ فصار منارة على تاريخ الإنسانية جمعاء ، وهو رئيس دولة لا يقارن فى عظمته التى تجمع بين القوة والتواضع ، بين الإمكانيات التى تملكها أمته ، والإصلاحات التى حققتها لها ، بين حرصه على خير مواطنيه ، ومصلحتهم فى الدنيا والآخرة .

إنه بلا شك قدوة نادرة ، ونهج رائع لمن أراد الإصلاح فى أى مجال ، وخبرة عميقة متعددة الجوانب ، لكل دارس للمناهج الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، فإن ما حققه من إصلاح سيظل مختزناً فى وجدان البشرية ، تسترجع منه ما تشاء إلى قيام الساعة ، لن ينضب له معين لأنه معجزة بكل المقاييس .

* * *

الخاتمة

دائماً وأبداً لكل عمل من نهاية ، وعندما وصل قلمى إلى كلمة الخاتمة ، وجدت قلبى يعتصر ألماً ، على تلك الأوقات التى قضيتها فى رحاب الإيمان الحق ، والعزيمة الصلبة ، والنية المخلصة فى الإصلاح ، تصحبها إرادة لا تكل ولا تلين ، تستعذب كل صعب فى سبيل مرضاة الله ، ورفع راية الحق عالية خفاقة ، تتشوق إليها القلوب المؤمنة فى كل مكان وزمان .

إن حياة عمر بن عبد العزيز ستظل بلا شك معينا عذباً ، يأوى إليه أرواح المخلصين فى مشارق الأرض ومغاربها ، يرتشفون ما يروى ظمأهم فى هجير الحياة ، عندما تشتد وطأتها وتزيد جاهليتها ، وتضيع فيها معالم الحياة الحرة الكريمة .

وستظل على مدى العصور والأجيال ، شاهدة على عظمة الإسلام ، فى تحقيق أجمل معانى الحياة ، وقدرته على انتشال الشعوب من هوة التخلف ، مهما زادت حدتها واتسعت جوانبها: فمبادئ العقيدة الإسلامية وتشريعاتها ، تتسامى على كل تشريع يتباهى به البشر ، لأنها أصل التشريعات كلها ، وأصل الحضارة الأوروبية بأسرها ، حيث جاء الإسلام وأوروبا فى عصور الظلام ، وقام المسلمون الأوائل برفع لواء الحق ، وجاهدوا فى سبيل نشر دين الله حقق جهاده ، وأقاموا المراكز العلمية ، فى صقلية وكريت والأندلس ، فاستقت منها الدولة الأوربية ما أضاء فكرها ، وجعلها تنطلق فى رحاب العلم والتقدم ، بعدما ذاقت الهوان فى عصور ظلامها ، على أسس فكرية راسخة، بفضل الإسلام وتفوق رجاله العظماء ، الذين عرفوا كيف ينتشلون البشرية من متاهات الجهل والظلام .

فهل آن الأوان لنستقى من نبع ديننا ووحى عقيدتنا ، بعدما تشتت بنا السبل واستجدينا الفكر والنظريات من كل الملل والنحل ، إلا ملتنا التى ننتمى إليها اسماً ، وورثناها عن أسلافنا ؟!

إن أعظم الجهاد الذى يمكن أن يقوم به مسلمو العصر الحديث ، هو الاغتراف من كنوز عقيدتنا ، وتقنينها بما يلائم الفكر الحالى ، فيمكن تبويب أحاديث الرسول ﷺ : سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، حيث سنجد فيها كنوزاً شتى من أقوال الرسول ﷺ التى قالها ، وهو يشيد دعائم الأمة الإسلامية ، فلم يترك مجالا من مجالات الحياة عموماً ، إلا ووضع فيه لبنات الإصلاح وتوجيهات الخير والرشاد : فهو حاكم دولة من الطراز

الأول : أقام أمته على العدل والشورى والمساواة والحرية ، المستقاة من وحى القرآن الكريم، وخاض الحروب لمواجهة الضغوط الخارجية ، التى تحارب الحق خوفاً على مطامعها ونفوذها ، وضرب المثل فى كيفية إدارة السياسة الداخلية والخارجية ، بما يصلح كيان الأمة ، ويعلى شأنها ويوطد نفوذها ، وكيفية استثمار مواردها ، بما يحقق التنمية الاقتصادية فى أجلى صورها .

أما عن الناحية الإجتماعية : فقد كان نبياً رسولاً، عرف بصبره ومثابرته وجهاده فى الله حق جهاده، كيف يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وكيف يعيشون حياتهم فى ظل تعاليم السماء السامية، وفى نفس الوقت يشيدون بنيان الحضارة لهم وللبشرية جمعاء.

ولا شك أن عمر بن عبد العزيز من الذين تشرفوا بالإسلام ، وتشرف الإسلام بهم ، فهو قد عشق العقيدة قلبا وقالباً ، لأنه بعقله المتوقد ذكاء ، ونفسه التواقة إلى المعرفة والعزة والسمو قد استطاع أن يتعرف على كنوز الشريعة ، وقدرتها على تحقيق الإصلاح بكل معانيه ، لجميع الشعوب والأمم ، ولكل العصور والأزمان .

فنقول لكل من ينبهر بعبقرية عمر بن عبد العزيز ، وما حققه من رفاهية لأمته ، فى مدة وجيزة ، لا تتعدى تسعة وعشرين شهراً ، نقول له : ابحث عن المنبع الذى استقى منه مبادئه ، وابحث عن الغاية التى كان يسعى إليها ، والسمو الذى كانت تتوق إليه نفسه . . هنالك ستعرف سر الإعجاز الذى انطوت عليه تلك الشخصية العظيمة ، فى تحقيق التقدم لأمته .

اللهم إن كنت قد أحسنت فبفضلك ، الذى تجود به على كل من اجتهد فى خوض بحار الحقيقة ، وإن كنت قد أسأت فمن نفسى وتقصيرى فى تقصى الحقائق ، وبذل الجهد اللازم لذلك .

وما أردت بعملى هذا ، إلا أن أنال شرف جزاء المتنافسين ، الذى وعد به الله عباده السائرين على طريق الحق : ﴿ **ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ .

[المطففين : ٢٦]

فاللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، الذى هدانا إلى ما فيه خيرنا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصل وسلم على آله وأصحابه ، الذين اهتدوا بهديه إلى يوم الدين، (وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين) .

* * *

المراجع

- عمر بن عبد العزيز (ضمير الأمة وخامس الراشدين) د. محمد عمارة ، دار الشروق (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) .

- معجزة الإسلام ، عمر بن عبد العزيز ، خالد محمد خالد مكتبة الأنجلو المصرية (١٣٨٩هـ - ١٩٦٠) .

- خامس الخلفاء الراشدين ، عمر بن عبد العزيز - عبد الرحمن الشرقاوى - مكتبة غريب .

- تاريخ الطبرى (ابن جرير الطبرى) - طبعة دار المعارف - القاهرة .

- مروج الذهب - (المسعودى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦

- الوزراء والكتاب (الجهشبارى) ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م .

- الطبقات لابن سعد - - طبعة دار التحرير ، القاهرة .

- الخراج (أبو يوسف) ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٥٢هـ .

- العقد الفريد (ابن عبد ربه) ، طبعة القاهرة ١٩٢٨م .

- الكامل فى التاريخ (ابن الأثير) طبعة القاهرة ١٣٠٣ هـ .

- تاريخ الدولة العربية (فلهوزن) ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريده ، طبعة القاهرة ١٩١٨م .

- الأموال (لأبى عبيد القاسم بن سلام) ، طبعة القاهرة ١٩٦٨

- الأغانى (أبو الفرج الأصفهانى) ، طبعة دار الشعب ، القاهرة .

- وعود الإسلام - روجيه جارودى .

- الإقتصاد السياسى - د. رفعت المحجوب - دار النهضة العربية ١٩٦٦م .

- بحوث مختارة من المؤتمر العالمى للإقتصاد الإسلامى (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠) جامعة الملك عبد العزيز .

- فتوح البلدان (البلاذرى) طبعة القاهرة ١٣١٩هـ .

- السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات (فان فلوتن) ، طبعة القاهرة ١٩٦٥

- المقريزى (الخطط) ، طبعة دار التحرير القاهرة .
- الأحكام السلطانية (الماوردى) طبعة القاهرة ١٩٧٣
- المدخل فى علم السياسة (د. بطرس غالى - د. محمود خيرى عيسى) مكتبة الأنجلو.
- الخراج (يحيى بن آدم) طبعة ١٣٤٧هـ .
- شرح نهج البلاغة (ابن أبى الحديد) طبعة القاهرة ١٩٥٩
- مقدمة ابن خلدون - طبعة القاهرة - سنة ١٣٢٢ هـ .

* * *